مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع. ح

كتاب الطليعة

4

نورمان ميلر

إنجيل الابن

ترجمة: ثائر ديب

نورمان ميلر

إنجيل الابن

ترجمة: ثائر ديب

twitter @baghdad_library

العنوان الأصلي للكتاب: THE GOSPEL ACCORDING TO THE SON

اســـــــــم المؤلـــف: NORMAN MAILER

1997

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية ــ 2003

دار الطليعة الجديدة

سوريا ــ دمشق ــ ص.ب 34494

تيليفاكس: 2311378

E-mail: sakkalfa@ scs-net.org

لا يجوز نقل، أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إنجيل الابن = the gospel according to the son
/نورمان ميلر؛ ترجمة ثائر ديب. ـ دمشق:
دار الطليعة الجديدة، 1998. ـ 176ص؛ 24 سم.
1ـ 823 أ م م ي ل إ 2ـ العنوان 3 ـ العنوان الموازي
4 ـ ميلر 5 ـ ديب
ع: 1092/7/ 1998 مكتبة الأسد

اخراج: هالـة فطوم

صمم الغلاف: جمال سعيد

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

إلى سوزان، دانييل، كيت، مايكل، ستيفن، ماغي، ماتيو، وجون بوفالو.

«نورمان ميلر»

إلى مهيار...

«كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين»

twitter @baghdad_library

مقدمة الترجمة العربية

الكاتب وكتابه

ـ «لماذا اخترت الكتابة؟». سأل المحاور.

ـ «لكي ألتقي بالنساء الجميلات». أجاب نورمان ميلر.

كان ذلك في لقاء مع الجمهور بمناسبة صدور روايته هذه **إنجيل الابن**. غير أنّ ميلر لم يلبث أن ذكر أنَّ الكتابة عملية استكشاف، بحثٌ عن الحقيقة، إرضاءٌ لحب الاستطلاع، وتأكيدٌ للحياة بالحديث عنها.

كلا الجوابين هما نورمان ميلر.

فهذا الكاتب له شهرته في الحياة الاجتماعية التي تسير جنباً إلى جنب مع صخبه وغزارته الأدبية. فهو واحد من أعظم روائيي العالم الأحياء، والطفل المشاغب والمزعج في الأدب الأمريكي، فضلاً عن كونه ملاكماً، ومخرجاً، تزوج ستَّ مرّات وأنجب تسعة أطفال، وتعرّض لعدد من محاكم الطلاق الشهيرة حتى إنّه قال في اللقاء المذكور إنَّ المرء «لا يعرف شيئاً عن المرأة حتى يلتقي بها في قاعة المحكمة». وكان ميلر قد دخل مصحة عقلية لطعنه زوجته الثانية. ولا يزال لكتابه **دعاية لنفسي**، الذي ألّفه قبل أكثر من عشرين عاماً، وقعٌ وصدىً ونكهةٌ خاصة في فهم مزاج هذا الكاتب الذي تلتحم سمعته الشخصية مع مكانته كأديب.

twitter @baghdad_library

وإلى هذا، فإن ميلر يهتمّ في أعماله وممارسته بمختلف القضايا الأميركية؛ الجيش، والسياسة، وقضايا المرأة، وغزو الفضاء... الخ. وسبق له أن قاد تظاهرات ضد حرب فييتنام، ورشّح نفسه لرئاسة بلدية نيويورك، وأسس منظمة لمراقبة الـ CIA (وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية)، وكان رئيساً لنادي الأدب الأميركي من عام 1984 إلى عام 1986.

ولد نورمان ميلر عام 1923 في لونغ برانش، نيوجرسي، وترعرع في بروكلن، نيويورك. وبعد تخرّجه من هارفرد، خدم في الجيش خلال الحرب العالمية الثانية. وفي عام 1948 نشر روايته الأولى **العراة والموتى**، وجعلت منه كاتباً مشهوراً في يوم وليلة. أما روايته التي بين أيدينا، **إنجيل الابن**، فهي عمله الثلاثون.

فاز ميلر بجائزة بوليتزر مرتين. أولاهما عام 1968 عن روايته **جيوش الظلام**، والثانية عام 1980 عن روايته **أغنية الجلاّد**، فضلاً عن جوائز أخرى.

ومن أعماله أيضاً **الشاطئ البربري** ، **الحلم الأمريكي**، **لماذا نحن في فييتنام؟** **شبح هارلوت**... الخ، كما كتب عن شخصيات شهيرة مثل مارلين مونرو، وأزوالد، ومحمد علي كلاي، وهنري ميللر، وبيكاسو، والآن عن المسيح.

والحقّ أنَّ النقّاد اختلفوا كثيراً حول رواية «**إنجيل الابن**»، شأنهم حول معظم روايات ميلر. ففي حين رأى بعضهم في الرواية ضرباً من الإعجاز الأدبي، فإنَّ البعض الآخر رأى فيها عملاً سخيفاً تماماً. وهذا الموقف الأخير ليس جديداً على ميلر، فلطالما اعتبر أنَّ للنقاد موقفاً سلبياً حياله، ولطالما وجد نفسه في معركة حامية معهم حتى إنه كان ينوي أن ينشر هذه الرواية باسم مستعار آملاً أن يفيد ذلك في إثارة نقاش أدبي حولها ولكي «يكون النقد أرحم»، كما قال، إذا جهل النقّاد اسم كاتبها الحقيقي. لكن الناشر رفض الفكرة.

وإذ نترك للقارئ أن يحكم في ذلك، نكتفي بالقول هنا إنَّ رواية ميلر هذه، **إنجيل الابن**، وثيقة الصلة بأناجيل **العهد الجديد**، **والكتاب المقدس** عموماً، إلا أنها تتجاوز ذلك كلّه أيضاً في إعادة خلق حيّة لعالم الجليل وأورشليم منذ ألفي سنة. فتعيدنا إلى زمن استقرار مزعزع متقلقل، إلى بلاد محكومة بالملاطفة والرعب معاً، وإلى طبقاتٍ فقيرةٍ مشتتةٍ مبعثرة، زمن مفتوح للمقارنة مع نهايات قرننا العشرين هذا.

أمّا المسيح الذي يعيد ميلر خلقه هنا فهو إنسان مغاير للآخرين، كما هو المسيح في أناجيل **العهد الجديد**، لكنه مفعم أيضاً بالأهواء والشكوك، بالقوة والضعف، بالشجاعة والخوف، بالحب والكراهية، إلهيٌّ وبشري، **ابن الله** الذي يشاركنا شرطنا العادي.

ولا يكتفي ميلر هنا بالنفاذ نفاذاً عميقاً ومتبصّراً إلى قلب يسوع، بل يعيد خلق العالم الذي مشى فيه المسيح ليقدّمه لنا واقعياً كالدم، كما قال أحد النقّاد، فيستطيع بذلك أن يقنعنا، أكثر من أي كاتب قبله ممن تناولوا هذا الموضوع، أنَّ الأمر قد كان على هذا النحو بالنسبة ليسوع الإنسان.

ولعل ميلر قد كتب روايته هذه في محاولة لإعادة الاهتمام بالرأفة، والوعي بضرورة مساعدة الضعفاء والوقوف معهم، سعياً وراء نوع من التوازن، في وجه قوىً لا تعرف إلا الربح والمال.

«أنا واحد من بين خمسين أو مئة كاتب في العالم يمكنهم أن يعيدوا كتابة **العهد الجديد**». هكذا قال نورمان ميلر.

ثائر ديب

اللاذقية، الخميس 12/ 3/ 1998

twitter @baghdad_library

ـ 1 ـ

ـ أنا من يقول **إنجيل مرقس** إنني جئت في تلك الأيام من الناصرة لأعتمد من يوحنا المعمدان في نهر الأردن. وإنَّ السموات قد انشقّت وأنا صاعد من الماء فرأيت «**الروح** مثل حمامة نازلاً عليَّ»، وصوتاً عظيماً يصيح: «أنت ابني الحبيب الذي به سُررْتُ». ثم أخرجني **الروح** إلى البرية، وكنت هناك أربعين يوماً أُجرَّبُ من **الشيطان**.

و**إنجيل مرقس** ليس بالكاذب، لكنَّ فيه مبالغة كثيرة. وأكثر منها في أناجيل متّى، ولوقا، ويوحنا، إذْ وضعوا على فمي كلمات لم أنطق بها يوماً ووصفوني أنني وديع ولطيف فيما كنت غضوباً مغتاظاً. ذلك أنهم كتبوا ما كتبوه بعد سنوات عديدة من رحيلي، وليس فيما كتبوه سوى تكرار لما أخبرهم به المتقدمون في السن. بل العجائز. حكاياتٌ لا ينبغي أن يُتَّكأ عليها إلا كما يُتَّكأ على شجيرة لا تلبث أن تنكسر وتنفصل عن جذورها وتطير مع الريح.

ولهذا فإنّي أطلع بروايتي. والذين يسألون عن كلامي، كيف جاء إلى هذه الصفحات، أقول لهم أن ينظروا في ذلك معجزةً صغيرةً. (فإنجيلي يتكلم، في الحقّ، عن معجزات). ورجائي أن أكون أقرب إلى الحقّ من مرقس، ومتّى، ولوقا، ويوحنا، فقد كان دأبهم أن يزيدوا من خراف قطيعهم. وهذا ما يصحّ كذلك على أناجيل أخرى كتبها غيرهم. فبعض هؤلاء الكتبة لم يخاطب سوى اليهود ممن تبعوني بعد موتي. وبعضهم لم يكرز إلا بين الأمم غير المختونة ممن كرهوا اليهود لكنهم آمنوا بي. فكيف للحقّ، إذاً، ألاّ يختلط بغير الحقّ، ما دام كلٌّ قد سعى إلى تقوية كنيسته؟

twitter @baghdad_library

ومن ثم، فقد كانت الغلبة لكنيسةٍ واحدةٍ من بين هذه الكنائس جميعاً، فاختارت أناجيل أربعة وأدانت الأخرى لأنها وضعت «كلاماً طاهراً مقدساً» إلى جانب «أكاذيب مخزية صفيقة».

لكن الأناجيل التي نالت الحظوة ما كانت لتفي بالغرض، سواء كانت أربعة أناجيل أم أربعين إنجيلاً. لأن الحقّ الذي يتراءى لنا في موضع لا يلبث أن يتوارى في موضع آخر. ويبقى أن ما أرويه هنا ليس بالقصة البسيطة ولا هو بالبعيد عن الغريب المدهش، لكنه حقّ، في كلّ ما أستعيده على الأقل.

ـ 2 ـ

لأربعة عشر عاماً كنتُ صبياً متمرناً، مع عشرة صبيان غيري، عند يوسف النجار. وكان أوّلُ عمل لنا نحن المبتدئين أن نشقّ زنود الخشب. فكنا ندقّ برأس الفأس إسفيناً وندفعه إلى أن ينشطر جذع الخشب على طوله. ثم نشطره مرة أخرى، وأخرى، إلى أن نحصل على عدد من الألواح الخشنة التي لا تلبث أن تعمل فيها يَدُ الصقل والتشذيب.

كان وضع الإسفين وتوجيهه يحتاج إلى مهارة ودربة. ولم يكن يسيراً أن تقيم صلة حميمة بينك وبين الخشب، أو أن تنسى أنَّ شجرة التفاح في جنّةِ عَدْن هي شجرة معرفة الخير والشر؛ فكان يبدو لنا في بعض الأحيان أنَّ الخير والشرّ لا يزالان في الخشب. فتلك قطعة جميلة أكلت أياماً من العمل تغدر بأداتك لأقل هفوة أو خطأ، وذاك لوح يبدو وكأنّه ينشطر من تلقاء ذاته. وصرت أؤمن أنّ لوحاً خشناً من الخشب يمكن أن ينمّ على معرفة بالخير والشرّ (وعلى كثير من الرغبة بفعل هذا الأخير)، وأنَّ مجرد مرور رجل شرير بقرب شجرة جميلة كان يكفي لأن يبعث الحزن في أوراقها.

وصرت أؤمن أيضاً أنَّ ثمة حكمة ينطوي عليها العمل الحسن. فحين كانت مهمتي تسير بصورة حسنة، كنت أشعر بنوع من الطمأنينة والسلام. وكانت رائحة خزانة حسنة الصنع تبعث فيَّ البهجة، وكنت أشعر بروح رهيفة بين سطحها ويدي. وأنا، إذ أقول هذا ولا أجد طريقةً أخرى أعبّر بها عن مشاعري، فلأنني من عائلة ما كانت لتتكلم في مثل هذه الأمور. فنحن **إيسينيون**، ومن بين كل اليهود كنّا متزمتين في عبادتنا الله الواحد

twitter @baghdad_library

وممتلئين احتقاراً تجاه تلك الديانات الرومانية التي تؤمن بآلهة كثيرة. ولذا كان من الصعب أن أحكي لعائلتي عن روح مبثوثة في الخشب. فتلك وثنية، وأنا قد ترعرعت على التقى والورع مثل يوسف النجار، زوج أمي، بثيابه البيضاء التي ما إن ينتهي من العمل حتى يسارع إلى ارتدائها، نظيفةً لا ينفك يغسلها ولو كان بئرنا شحيحاً. لقد كان على كل إيسينيّ أن يكابد للوصول إلى مثل هذه الطهارة.

ومن أجل هذه الطهارة ذاتها، نادراً ما كنّا نتزوج. وما كان رجلٌ ليضطجع مع امرأته إن لم يتلق أمراً من الله بأن ينجب طفلاً. ولهذا راح بقية اليهود يتحدثون عنا كطائفة قيد الزوال (القريب!) ما لم نتحول إلى مذهب آخر.

ليكن معلوماً، إذاً، أنني نشأت على عدم السعي خلف النساء، بل على عدم الاقتراب منهن. فقد كان علينا أن نعيش محاربين من أجل الرب. وما كان لنا أن نضطجع مع النساء إذا ما كان لمثل هذا الفعل أن يباعد بين غايتنا وبيننا. بل إنّ العيش تبعاً لهذه القاعدة كان قانوناً، حتى لو استغرقت هذه الحرب عمر المرء كلّه.

ـ 3 ـ

في السابعة والعشرين من عمري أكملت تدرّبي وصرت معلّماً، غير أنـي بقيت أعمل عند يوسف. وفي فتوتي، كان بقية المتدربين يغـارون منـي، إذْ كانوا ينظرون إلى يوسف على أنه أبي. وكنت أقـول لهـم إنَّ يوسـف يتّقـي الله ويعامل كلّ عمّاله بالقدر ذاته مـن الاحـترام الـذي يبذلـه تجـاه عملـه. والأمر أنني كنت أبالغ في تدقيق عملي، وكان يوسف يومئ برأسه ويقـول: «ستكون نجاراً بارعاً إن شاء الله». ولأنه كـان يشـيح بوجهـه بعيـداً ويبـدو كمن يزمّ شفتيه على سرّ وهو يقول مثل هذه الأشياء، فإنني كنت أتسـاءل: ما الذي يرمي إليه يوسف؟

كان يوسف متقدّماً في السن، وذاكرته ضعيفة، وما كان ليتذكـر أنـه قـد أفضى إليَّ بهذا السّر، سرّ ولادتي، وأنا بعـد في الثانيـة عشـرة مـن عمـري. غير أن ذاكرتي كانت بَعْدُ أضعف من ذاكرته بهذا الشأن، فقد روى لي هذه الأحداث ونحن في طريق العودة إلى الناصرة مـن الهيكـل في أورشـليم، ومـا سمعته منه يومذاك كان بعيداً كل البعد عن أفهام صبيّ صغـير حتـى إنـني فور عودتنا سقطت صريع حمى مديدة. وبدا كل ما قاله لي يوسف وكأنه قد تبدّد. ولست أحسب أن الحمى هي التي جعلتني أنسى، بل رغبتي آنذاك بألاّ أتذكر. ولم أقدر أن أستعيد ما قاله لي وأنا في الثانية عشـرة مـن عمـري إلا بعد ثمانية عشر عاماً، حين كنت في الثلاثين أثناء حدادنـا علـى مـوت يوسف.

في تلك الأيام، كانت عائلتنا وبقية الإيسّينيين في النـاصرة، مـن أغنيـاء وفقراء، يقصدون أورشليم في الأسبوع الذي يسبق عيد الفصـح، وقـد ارتـدوا

twitter @baghdad_library

ثيابهم البيضاء، وساروا بأعداد لا يخشون معها مغبّة لصوص الطريق. وكانت الرحلة تستغرق أياماً ثلاثة من الفجر حتى حلول الظلام، فوق التلال وعبر الوديان والصحارى التي تفصل بين الناصرة وأورشليم. غير أن العائلة كفّت عن الذهاب إلى هناك بعد سنتي الثانية عشرة.

ففي تلك الزيارة الأخيرة، وبينما كنّا نجتاز آخر بوابة في أورشليم آيبين إلى البيت، تسللت من الموكب ورحت أعدو عائداً إلى الهيكل. ولأنَّ أمي كانت تظن أنني بين الرفقة من أولاد الناصرة الذين كانوا سويةً، فإنها لم تلحظ غيابي إلا بعد مسيرة يوم.

وحين طلبني يوسف وأمي بين الأقرباء والمعارف ولم يجداني، عادا إلى الهيكل، وكنت هناك في واحد من الفناءات جالساً وسط عدد من الكهنة والمعلمين. فلما أبصراني اندهشا، ذلك أنني لم أكن جالساً بين هؤلاء الحكماء أستمع وحسب بل كنت أحدّثهم.

وبحسب ما قاله يوسف ومريم، فإنّ كلامي هناك كان كلام أنبياء؛ نوعاً من المعجزة.

لاحقاً، بعد وفاة يوسف، صرت مقتنعاً بأنَّ عليَّ أن أكرز بين الناس وأبشِّرهم، وسألت أمي عمَّا قلته في ذلك اليوم في الهيكل قبل ثمانية عشر عاماً. لكنها لم تَقُل لي سوى إنَّ كلماتي كانت مفعمة بقوة خفية خارقة ومهلكة فلا مجال لترددها، واكتفت بأن ذكرت اسم الربّ عالياً. وحين رفضت أمي إجابة طلبتي، استيقظتْ ذكرى تلك اللحظة في رأسي على نحو واضح، وأنا، أيضاً، سُرِرْت بحكمتي.

ما الذي قلته هناك، إذاً؟ لم تكن أفكاري التي عبّرت عنها خارقة لدرجة تصعب فيها الإحاطة بها. ففي تلك الأيام غالباً ما كان حكماء المجمع يخوضون نقاشات فيما بينهم حول **الكلمة**، وهل الكلمة عند الله على الدوام؟

ولقد استهلّ يوحنا إنجيله، لاحقاً، بالقول: «في البدء كان **الكلمة**، و**الكلمة** كان عند الله، وكان **الكلمة** الله». لكن ذلك كُتِبَ بعد سنوات

عديدة من رحيلي. أما حين كنت في الثانية عشرة، فكان الأمر لا يزال محلَّ مجادلة وخلاف. هل خلق الله أجسادنا كما خلق أجساد بقية البهائم، أم أنه صورنا بِنُطْقِه وحسب؟

قَدِرْتُ، إذاً، أن أستعيد قولي لأولئك الشيوخ المتعلمين إنَّ **الكلمة** كان يعيش في الماء عند البدء شأن النَفَس الحامل لكلامنا والذي يخرج في سحابةٍ في صباحٍ شتوي بارد. وقلت لهم أيضاً إن **الكلمة** يعيش في ماء نَفَسنا كما المطر الذي يعيش في السحاب. وبذا نحن ننتمي إلى الله، فالمياه كلُّها إنَّما هي مياهه، كما نعلم، شأن جميع الأنهار التي تجري إلى البحر.

وفي تلك الساعة، قال الكهنة لأمي: «لم نسمع أبداً حكمة كهذه من صبيٍ في مثل سنّه». وظني أن هذا المديح هو الذي دفع يوسف لأن يقصّ عليَّ قصة مولدي في درب عودتنا إلى الناصرة.

وما أرويه ها هنا هو القصة كما استعدتها في الثلاثين من عمري بينما كنت أصلّي في جنازة يوسف. والحقّ أنني تذكرت، في الصلاة، ذلك الجهد الذي ارتسم على وجهه يوم أخبرني أنه ليس أبي.

twitter @baghdad_library

ـ 4 ـ

كان يوسف أرملَ. وكان أكبر من أمي بسنوات عديدة، لكنه تقدّم للزواج منها. ولأنه إيسينيّ، فقد أعلن أنه سيحترم فارق السنّ بينهما وأنه سيكون في البداية بمثابة حارسٍ لها، يحفظها ويحميها، ومن ثم يتزوجان. ووافقتْ. وانتظر يوسف.

وفي ليلة دخل جبرائيل الملاك حجرة نومها. وأخبرت مريم يوسف أن هذا الملاك قال لها: «الرب معك مباركة أنت في النساء».

وأمي كانت إيسينية، مثل يوسف، وابنةُ إيسينية. وقد ضربت الفضيلة سياجاً حول السياج الأول المكرَّس لحمايتها. لكن جبرائيل الملاك كان يتألق بهاءً، وبياض ثوبه كان مثل ضوء القمر. وفي ذلك الضوء ارتعشت وشعرت بإعجاب كبير. كما شعرت أيضاً أنها ضعيفة، وأن كل ما سبق لها أن عرفته قد تركها.

قال الملاك: «يا مريم، لقد وجدت نعمةً عند الله. وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً، وتُسَمِّنَهُ يَسُوع. هذا يكون عظيماً وابن **العليّ** يُدعى». هذا الكلام من **إنجيل لوقا**، أما بحسب أمي فإن الملاك لم يقل سوى القليل. لكن مريم رأت مجد الرب (ولو للحظةٍ وحسب)، وأدركت من الخفقة السماوية في صدرها أنّها حبلى. وعبقت في الجو رائحة أزكى من أيّ بستان. ثم مضى الملاك، دون أن يمسّ لها طرفاً.

وحين علم يوسف أنها حبلى، ارتمى وأجهش بالبكاء. وراح يتساءل: «لمن أصلي، لي أم لها؟ كانت عذراء ولم أصُنْها».

وبعد ذلك راح الغضب يتنامى في صدره وقال لها: «لماذا جلبت هذا العار على نفسك؟»

وطفقت مريم تبكي وقالت: «أنا بريئة، لم أعرف رجلاً قطّ».

ووقع يوسف في حيرة من أمره. فإخفاء خطيئتها انتهاك للناموس، أمّا إخبار كهنة الإيسينيين فيعني أن تُرجَمَ حتى الموت. وقال يوسف لنفسه: «أُبْعِدُها عني».

وهكذا قرر يوسف أن يخفيها عند أقرباء له يعيشون في الجبال إلى الغرب. لكن مريم مضت إلى الجبال الشرقية لتزور نسيبتها أليصابات الحبلى منذ ستة أشهر. وفي هذه الأثناء، جاء يوسفَ صوت هاتفٌ في نومه: «خذ الصبية امرأتك. لأن الذي حُبِلَ به فيها ليس من رجل، وابنها مبارك».

واستيقظ يوسف مقتنعاً قناعة راسخة بأنهما يجب أن يتزوجا. وما إن عادت مريم إلى الناصرة حتى تزوجها، لكنه ظلّ على ما عُرِفَ به من تدقيق واحتراس. فهو لم يعرفها من قبل، ولم يرغب في أن يعرفها إلى أن ولدت. وقد سمّياني يسوع. وكان هذا الاسم لا يزال هو اسمي حين ذهبت لزيارة يوحنا المعمدان وتباركت منه ثم كنت على جبل في البريّة أربعين يوماً. غير أننا لن نقدر أن نتكلم على تلك الأيام إلا بعد أن نُخْبِر بالكثير مما ينبغي أن نُخْبِر عنه، وبعضه كان قد جرى قبل ولادتي.

twitter @baghdad_library

-5-

كان يوسف فخوراً بأسلافه؛ فهو من ذرية الملك داود، أبي الملك سليمان. ولهذا كان يرغب في أن تضع زوجته حملها في بيت لحم، فهي المدينة التي ولد فيها داود، كما ولد فيها يوسف نفسه.

وكانت أمي على وشك أن تضع لكنها لم تمانع في القيام بتلك الرحلة على مدى ثلاثة أيام من الناصرة إلى بيت لحم؛ فهي أيضاً كانت فخورة بأسلاف يوسف. وهذه هي حقيقة رحلتنا تلك إلى بيت لحم، ومن الصحيح أيضاً أنني ولدت في مِذْوَد في حظيرة على ضوء قنديل. فكما صار الجميع يعلمون اليوم، لم يكن ثمة موضع آخر في النزل الذي حللنا به.

وفي الحقول المحيطة بنا كان بعض الرعاة يحرسون قطعانهم، فجاؤوا إلى عند المِذْوَد فور ولادتي. ذلك أن ملاكاً ظهر لهم وأشار إلى الحظيرة وقال: «اليوم وُلِدَ **المسيح، مخلص الرب**»

وأشاع هؤلاء الرعاة الخبر حتى وصل إلى هيردوس، ملك إسرائيل، أنَّ ثمَّة ولادة مقدّسة في بيت لحم. ورأى هيردوس في الحال أنّ رضيعاً سهرت الملائكة على ولادته يمكن أن يصبح ملكاً. ولم يكن هيردوس بحاجة إلى مزيد من الملوك.

- 6 -

في سنة ولادتي، كان هيردوس قد صار عجوزاً. وكفّ الشعب عن القول إنّه أعظم محارب في إسرائيل. أمّا في شبابه، فقد كانت انتصاراته كثيرة جداً حتى إنّه امتلأ شهوة واتّخذ له عشرة زوجات.

ولم يكن شعب إسرائيل يحب هيردوس. فهو أدوميّ من جنوبي اليهودية، ولم يكن يهودياً إلا بالاسم. والحق أنّه كان وثنياً. وقد جعله قيصر أمبراطوراً على جميع العبرانيين بمرسوم من روما، أمّا هيردوس فعلّق منحوتات النسر الروماني على بوابات الهيكل، الأمر الذي يُعَدّ تدنيساً تحرمه **الوصايا**. وكانت حياة هيردوس مليئة بكثير من لحظات النجاسة وأفعال الشرّ. وكان فريسة للشكوك والوساوس، حتى إنه راح يشك بزوجته مريامن، الأثيرة لديه، وأقنع نفسه بأنها لن تلبث أن تخونه، فأمر عبداً له بأن يذبحها. لكنه راح يتفجّع عليها بعد ذلك، وقدّم ابنيه منها على بقية أبنائه، غير أنّ أحداً منهما لم يستطع أن ينسى فعلته أو يسامحه. وقد سعيا إلى قتل أبيهما، ووضعا خططاً لهذه الغاية. لكنها كُشفت. وقُطِعَ رأساهما. وفي روما، قال الأمبراطور أغسطس: «خير للمرء أن يكون خنزيراً عند هيردوس من أن يكون ابنه». وهو قول تردد كثيراً بين اليهود.

وكلما تقدّم هيردوس في السنّ كان يتقدّم في الجنون. ولم يمض يوم واحد على سماعه بخبر ولادتي حتى أرسل ثلاثة من الحكماء إلى بيت لحم. قال لهم: «جدوا الصبي المقدس وأخبروني، لكي آتي أنا أيضاً وأسجد له». ولم يصدّقه أولئك الحكماء، لكنهم انطلقوا في الحال، وكان الوقت ليلاً.

twitter @baghdad_library

وفي رحلتهم القصيرة إلى بيت لحم، جاء نجم من المشرق ومرّ فوقهم، ثم انتقل إلى الجنوب. وتبع الحكماء النجم إلى أن جاؤوا إلى مذودنا. وهناك خرّوا سجداً قدّام مريم ويوسف. هكذا جاء في **إنجيل متى**. كما جاء أيضاً أنّ هؤلاء الحكماء قد جلبوا معهم هدايا ذهباً ولُبَاناً ومُرّاً. غير أنّ ذلك قد لا يكون صحيحاً، فيوسف ومريم لم يتكلما أبداً عن مثل هذه الهدايا.

والحقّ أنّ هؤلاء الحكماء قد قدّموا هدية واحدة ثمينة بتحذيرهم يوسف ألاّ يبقى يوماً واحداً بعد ذلك تحت حكم هيردوس. وقد سارع هؤلاء الحكماء وغادروا أرض إسرائيل، إذْ رحلوا بعد مجيئهم إلى المذود مباشرة. وما هي إلا ساعة حتى انطلقنا نحن أيضاً نغذّ السير ليلاً إلى أن وصلنا أرض مصر.

وغَضِبَ هيردوس جداً وصار نهباً لمشاعر الثأر والانتقام. فحين لم يَعُد الحكماء، أرسل هيردوس جلاّديه إلى بيت لحم وأمرهم أن يقتلوا جميع الصبيان الذين ولدوا في زمن مولدي. وحينئذ تمّ ما قيل بإرميا النبي القائل: «نَوْحٌ وبُكاءٌ وعويل».

وسرعان ما مات هيردوس، فعاد يوسف إلى الناصرة، حيث أنجب ولدين من أمي، هما يعقوب ويوحنا. ولعل لعنة كانت قد حلّت بحبّ واحدنا للآخر، ذلك أنني في السنوات اللاحقة لم أشعر تجاه أخويّ هذين بذلك القرب الذي شعرت به تجاه الصبيان الذين ذُبحوا في بيت لحم. ولما فضّ موت يوسف ذلك الختم الذي أُغْلِقَ على ذاكرتي، كثيراً ما كنت أحزن وأطيل التفكير في أولئك الصبيان والحياة التي لم يُقيَّض لهم أن يحيوها.

ـ 7 ـ

ليكن معلوماً أنني كنت مهيأً للكلام مع كهنة الهيكل في أورشليم بما كلّمتهم به. فأنا، مثل غيري من الصبية، كنت قد بدأت دراستي قبل سنّ الخامسة، حيث كنا نقرأ في مجمعنا الصغير كل يوم إلى أن يهبط الظلام. وفي الثامنة من عمري، كان بوسعي أن أقرأ لغة بني إسرائيل القدماء، وكنت أعرف **الوصايا**، التي جاء بها موسى، والأحكام المستمدة منها. ذلك أنّ كلّ وصية تفرّع عنها عشرة أحكام، ومن كلّ واحد من هذه الأخيرة عشرة أخرى، حتى كان هنالك ألف من الأحكام المختصّة بالصلاة والطعام وقواعد التقدمة على المذبح. كما قرأنا **التكوين**، **والخروج**، **واللاويين**، **والعدد**، **وسفر التثنية**.

وقد قرأنا نبوءات **إيليا**، **وأليشع**، **وحزقيال**، **وأشعيا**، وكثيراً مما لم يرد ذكره في لفائفنا القليلة وذكره لنا شيوخنا ومعلّمونا.

وحين عدنا إلى الناصرة إثر زيارتنا تلك إلى الهيكل في الثانية عشرة من عمري، توصلت إلى أنني إن كنت قد أوتيت حكمةً تكفي للتحدّث مع الحكماء، فلا بدَّ أن تكون هذه الحكمة قد أتت من أرواح أولئك الصبية الصغار الذين قُتلوا بسبب مولدي.

لكن ثقلاً عظيماً كان ينيخ فوق كاهلي؛ هو القصة التي قصّها عليَّ يوسف بشأن أبي الحقيقي. ذلك أنني ما كنت لأقوى على النظر إلى نفسي أنني **الابن**. فبعد المدرسة، أيام كنا صبية نتعارك، كنت أُهْزَم في تلك المعارك بقدر ما أنتصر. فكيف يمكن، أن أكون **ابن الرب**؟ وهذا الشكّ كان يزرع فيَّ الخوف من نقمة الرب، إذْ كنت أعلم أنه قد قال لموسى إنّ شعب

twitter @baghdad_library

إسرائيل سيتركه وينكث عهده الذي قطعه معه وأنّ غضبه سيشتعل عليهم إذّاك فيحرقهم جوعاً ويصليهم حُمُوّاً حارقاً يفترسهم. والحقّ، أنّ نقمة الرب كانت عليّ بسبب أفكاري هذه، فسرعان ما اشتعلت الحمى في أنحاء جسدي وراحت تفترسني.

وحين تماثلت للشفاء، كنت قد أضعت كل ذِكْر لما قصّه عليّ يوسف. وعدت مرة أخرى مثل غيري، شاباً فتياً، إذ كنت آنئذ في الثالثة عشرة من عمري. ويومها بدأت العمل في ورشة يوسف فبقيت سبع سنين متدرّباً بسيطاً وسبعاً أخرى متدرّباً ماهراً قبل أن أصبح معلّماً.

قضيت سبع السنين الأولى أتعلّم تشكيل الآجر لبناء الجدران وتركيب أُطُرُ السقوف والأبواب والنوافذ. كما تعلمت صناعة الأسرّة والموائد، والكراسي والمجامع الصغيرة، وصناديق من كلّ الأحجام، وكذلك النير الذي يوضع على ثيران الحراثة. أمّا في السنوات السبع التالية من تدرّبي فقد عملت في عاصمة الجليل، على مسير ساعة من الناصرة. وهناك تعلمت المزيد في مهنتي إذ عملت في منازل فخمة، وعلمني يوسف الكثير إذ كان يُتقن فنوناً كثيرة.

وهنا، في عاصمة الجليل هذه، كان يقيم هيرودس أنتيباس، ابن هيرودس، الذي أصبح ملكاً على الجليل، وأدومية، واليهودية، وحين كنت أرقبه وهو يمر في موكبه، لم أكن أعلم لماذا يعدو دمي فيَّ مثل جواد مُطَهَّم وتتملكني رغبة بالفرار. كان قلبي هو الذي يشير عليّ وليس عقلي؛ فلم تكن لديّ أدنى فكرة عن سبب هذا الخوف الذي أشعر به لمرأى هيرودس أنتيباس وهو يقطع طريقه الملكي في دروب العاصمة. كلّ ما كنت أعرفه حينئذ هو أنني لم أكن أرغب بأيّ شيء أكثر من رغبتي في أن أكفّر عن كلّ المشاعر السيئة (والمشاعر الطيبة) بالانكباب على العمل بمزيد من الحرص والاهتمام. لقد كانت حياتي آنئذٍ مكرّسة للنجارة.

-8-

كان من عادة يوسف أن يقول: «حين يوصل لوح من الخشب بلوح آخر بيديّ شخص يهتمّ لدقة الاتصال، فإنّ القطعة الأولى سوف تلتصق بالثانية كما في زواج مبارك. أما الألواح التي توصل مع بعضها بالمسامير فتنفصل كلّ على حدة حين تصدأ تلك المسامير؛ كذا يَفسُدُ الزواجٍ بالزنا».

ولست أعلم إن كان هذا هو السبب في أنّ يوسف لم يسمح لأي منّا بأن يستخدم أدوات حديدية إلا بعد أن يكون قد أنهى سنواته السبع الأولى بأدوات من البرونز. وكثيراً ما كان يوسف يحكي لنا عن نجّارين من أزمنة قديمة وبلاد أخرى. كان يحكي لنا عن المصريين وتلك الخزائن الصغيرة الناعمة الدقيقة التي كانوا يصنعونها من خشب أقلّ جودة من خشب السَّنْط، أو الجمّيز، أو الطَرْفاء. وكلّ هذه أخشاب مُعَرَّقة مليئة بالعقد، وتحتاج سطوحها لأن تُنعَّم وتُزَخرف بالصباغ وورق الذهب. غير أنّ عمل المصريين كان أجمل من عملنا، مع أنه مشغول بأدوات برونزية، حتى إنّ يوسف كان محتفظاً بخزانة مصرية صغيرة عُشِّقَت ألواحها واحدها مع الآخر على نحو كان يوسف يرى فيه أعجوبة.

وحين شرعنا باستخدام الأدوات الحديدية، كان ذلك باحتراس وحذر، بل وخوف. وكنّا جميعاً قد اطّلعنا على رؤى دانيال ونعلم أن أسنان الوحش الرابع في تلك الرؤى كانت من حديدٍ بقوةٍ مرعبةٍ.

وتعلّمت. وبعد فترة، كان بمقدوري أن أستخدم الحديد كما يجب، وأن أُعمِل أدواتي في أخشاب مجلوبة من تربة عديدة؛ قيقب، وبلّوط، وطَقْسوس، وتنوب، وأرز. وكنا نتخيّر الطقسوس لأُطُر الأبواب، والقيقب،

twitter @baghdad_library

بخشبه اللين الطري، للأسرّة، ونستبقي الأرز، برائحته الزكية، للخزائن. أما الزيتون البريّ، بقساوته المعروفة، فلمقابض الأدوات.

كان لديَّ أصدقاء في ورشات أخرى يتقنون طلي الأشياء المعدنية بالذهب والفضة؛ حتى إنّ البعض كان يفكر بالرحيل عن عاصمة الجليل إلى روما لكي يتدرب هناك ويصبح معلّماً عظيماً. لكنّ ذلك لم يكن إلا كلاماً؛ فنحن لم نتوانَ أبداً في التقيد بالطهارة في كلّ ما نعمل. وكنا نعلم أنّ روما مليئة بالفجور. وكان يقال إنّ الإمبراطور والإمبراطورة منغمسان في فسقٍ وخلاعةٍ يخشى المرء إذا ما تكلم عنها أن يصيب لسانه قرح كريه.

وهكذا صارت حرفتي مفخرتي، وكنت أحترم الأدوات في صندوقي. مِبْرَد، ومِسْحَج، ومطرقة، ومِخْرَز، وقَدّوم، وذراع قياس، ومنشار، وثلاثة أزاميل للكشط والتقشير، وإزميل مقعَّر أو مِظفار، كانت لي جميعها. أمّا معرفتي كيف أتعامل مع الخشب فكانت أداة أخرى.

وحين كنّا نضع التنّوب أرضيةً، كنا نصلّي لكي لا يحترق. فالنار تنجذب إلى التنّوب. وكنا نتلو صلوات أخرى فوق الطقسوس الشتوي، الذي هو عرضة للتفسّخ. أما السرو فمبارك، لأنه يقاوم الدّود.

وقد علّمنا يوسف أيضاً طرقاً عديدة لبناء جدران من حجر للأبنية الضخمة، وحكى لنا عن مادة تدعى البزولان، لفظتها البراكين في جنوب روما، تتحول إلى ملاط حين تُمْزَج مع الكلس. وهذه المعرفة دفعتني إلى التفكير بحكمة الرب، الذي خَبرَ الأرض جيداً حتى إنَّ تربة ثقيلة يرميها البركان بعيداً عن مكانها الأصلي يمكن أن تجد لنفسها طبيعة جديدة فتمسك الحجارة المنفصلة وتشدّها معاً. وكثيراً ما كنت أتفكّر فيما يشتمل عليه ملكوت الرب من مواد نُعمل بها أيدينا.

ـ 9 ـ

مع مهاراتي تلك، كنت في طمأنينة وسلام. غير أنّها نادرة تلك السكينة التي تخلو طويلاً من التعكّر والاضطراب. فيوسف كان في أواخر أيامه، وبدأت أحلم بالهيكل في أورشليم، ورحت أتساءل إن كان الوقت قد فاتني لتعلّم سبك الذهب والفضة. وراودتني أفكار بأنني سوف أطلي **المذبح المقدس**، لكنني لم أثق بهذه الخواطر، فقد ملأتني بطمعٍ وصل إلى حلقي وكاد يخنقني؛ ودفعت بي إلى التساؤل عمّا إذا كان من الحكمة بالنسبة لإنسان متواضع مثلي أن يعمل بالذهب. كنت أشعر أنني مُهَيّأ لأمر ما دون أن أدرك أي أمر هو. كنت أشعر أنني رجل ينطوي على رجلٍ آخر في داخله.

ومات يوسف، ونَدَبْتُهُ. وللوقت ألمّ بي اضطراب شديد. فقد استعدت سرّه الكبير. وأدركت من جديد أن أبي هو الرب، دون أن أدرك كيف، فحينئذٍ كان لا يزال بعيداً عني. وكلّما كان يخطر لي أنه سيظهر، لم يكن يفعل. كنت محتاجاً لحكمةٍ جديدة.

وحينئذ قررت أن أحجّ إلى ذلك النبي والإنسان التقيّ يوحنا المعمدان. وأقدر أن أقول إنني كنت أعرفه قبل أن أراه، فهو نسيبي. وكثيراً ما كنت أسمع أمي وهي تتفوّه بكلام طيب عن يوحنا، مع أن كلام الآخرين لم يكن كذلك. فَذِكْر يوحنا كان ذِكراً سيئاً بين الفرّيسيين في مَجْمَعِنا. وفرّيسّيو الناصرة هؤلاء كانوا أناساً أتقياء، على الجملة، لكنهم لم يكونوا بمثل تقانا؛ فهم تجّار، ومن البدانة بمكان، وشهواتهم الكثيرة لم تكن طاهرة كلها. كانوا يشبّهون يوحنا بمخلوق بريّ، لكن ذلك لم يَحُل دون أن أشعر

twitter @baghdad_library

بأنني قريب من نسيبي. فهو قريبي، وإن كنت لا أعرفه. وثمة كثير من الشبه في الطريقة التي حُبِلَ بنا وفقها.

كان أبو يوحنا، زكريا، كاهناً إيسينياً، وأمه، أليصابات، هي تلك المرأة ذاتها التي مضت أمي لزيارتها حين حبلت بي. وكانت شديدة التقى ونحيلة مثل ورقة عشب طويلة. وكذلك كان زكريا. وكانا يؤمنان بأنّ الجسد ينبغي أن يُحفَظ مثلما يحفظ المعبد. ذلك أن الجسد الطاهر وحده يمكن أن يأتي بصلوات طاهرة في الصراع ضد قوى الشر.

ولذا لم ينجب زكريا وأليصابات أبناء. وكانا سعيدين. ثم جاء حينٌ بدأت فيه أليصابات تندب أنها عاقر. وفي يومٍ تضرّعت أن تُرْزَقَ بولد. وسُمِعَت طِلْبَتُها. ففي ذلك الصباح، وبينما كان زكريا يَكْهُنُ أمام المذبح في نوبته، ظهر له ملاك. (والحقّ أنّ هذا الملاك كان جبرائيل نفسه الذي سيكلم أمي بعد ستة أشهر من ذلك).

قال جبرائيل: «لا تَخَفْ يا زكريا. لقد أتيتك بأنباء سارّة. امرأتك أليصابات ستلد ابناً».

اضطرب زكريا ووقع عليه خوف، فلم يسبق أن ظهر له ملاك من قبل. ولذا قال: «أنا شيخ، وامرأتي متقدّمة في أيامها. من أنت؟» وعندها غضب الملاك، وقال لزكريا: «لأنك لم تصدّق كلامي، ها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي تلد فيه أليصابات». فلما خرج زكريا من المجمع كان أبكمَ. وما من أحد كان يسمع منه سوى التوتر والالتواء في حلقه.

ورجع زكريا إلى بيته وبقي صامتاً. لكنه سرعان ما شَهِد أعجوبة. ففي ذلك اليوم الذي فقد فيه نطقه، قَدِرَ زكريا أن ينهضَ ويضطجع مع أليصابات. وحبلت أليصابات. وخافت أن تفقد ما أُعْطِيَ لها فظلّت في الفراش، ولم تحرّك جنينها أقلّ حركة.

وفي الشهر السادس من هذا الحمل، زار جبرائيل أمي. وبعدها، وبينما كان يوسف يفكّر كيف يحميها، مضت مريم إلى الجبال لتزور نسيبتها.

وفي اللحظة التي وقعت فيها عينا أليصابات على أمي عند الباب، ارتكض الجنين في بطنها. وصرخت بصوت عظيم: «مباركة أنت في النساء يا مريم. منذ الآن جميع الأجيال تطوّبكِ».

وإذ سمعت مريم مثل هذا الكلام شعرت بالفخار. ذلك أنّه كان يقال إنَّ أليصابات تعود في نسبها (من الطرف الذي لا يقرب لأمي) إلى هارون، أخي موسى. وتبريك أليصابات علق في أذن أمي، وتعاظم افتخارها بقدر تواضعها، وقالت: «القدير صَنَعَ بي عَظَائم». وسرعان ما اقتنعت أنّ كلّ ما تقوله لا يمكن أن يكون سوى الحقيقة. وكثيراً ماكانت تحكي بحنان عن يوحنا المعمدان. وكان يروق لها أن تقول: «ما إنْ وقعت عينا أليصابات عليّ، حتى ارتكض يوحنا في بطنها».

وفي اليوم الذي ولدت فيه أليصابات انحلّت عقدة لسان زكريا، وتكلم، وبارك ابنه.

وكبر يوحنا. وكان نحيلاً، أكثر نحولاً بعدُ من زكريا أو أليصابات، وكان يعيش وحيداً في البريّة. وراح يكرز قرب مخاضة من نهر الأردن، وخرج إليه الحجيج وفي قلوبهم خوف من خطاياهم. كان يكرز بقوة الكلمة والروح حتى إنَّ رئيس الكهنة أرسل إليه لاويين ليسألوه: «من أنت؟ المسيح أنت؟»

وقال لهم يوحنا: «أنا أُعَمِّد بماء، ليس إلا، ولست المسيح». وحينئذ أبدى أولئك الفريسيون استياءهم، وقالوا: «فما بالك تُعَمِّد إنْ كنت لست المسيح. من أنت، إذاً؟»

وأجابهم يوحنا: «أنا صَوْتُ صارخ في البرِّية. ولكن سيأتي بعدي الذي لستم تعرفونه. وقد اختاره الرب أقوى مني، ولست أهلاً لأن أحلّ سيور حذائه». وكان يوحنا قد قال ذلك في اليوم السابق لذهابي إليه، ولذا لم أكن أعلم أنه قد قال مثل هذا الكلام. وكنت قد فكرت بالذهاب إليه مثل أيّ واحد آخر من الحجيج.

twitter @baghdad_library

ـ 10 ـ

مما قاله الناس عن يوحنا المعمدان، وكان صحيحاً حين رأيته، إنه لم يكن يضع عليه سوى ستر من وبر الإبل يغطي حقويه. فكان عارياً تحت الشمس وبدا لونه أشدّ سمرة من لون كل من زاره، رجلاً أسمر نحيلاً بلحيةٍ تفرّقت أشعارها.

وكنت قد سمعت أيضاً أنه لا يأكل اللحم ولا يشرب الخمرة، لأن اللحم والخمرة يجلبان الشياطين للعيش في الجسد. فكان طعامه جراداً وعسلاً برياً، أفقر طعام متاح لفقير. غير أن الناس كانوا يقولون إن هذا الجراد كان يبيد كل إنكار وكفر في قلوب من جاءوا إلى المعمدان. أما العسل البري فقد أضفى على صوته ضرباً من الشدّة والحرارة وهو ينطق بكلام أشعيا: «تصير المُعْوَجَّاتُ مستقيمة والشِّعاب طرقاً سهلة».

وكانوا يقولون أيضاً إن هذا الجراد الذي يأكله كان يجعل روحه فظة فيحيي التائبين قائلاً: «يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟»

وكانوا يسألونه: «ماذا نفعل؟» فيجيبهم يوحنا المعمدان: «مَنْ له ثوبان فليُعط من ليس له». وما انفك يتحدث عمن هو أقوى منه ويأتي بعده.

وحين رأيت وجهه أول مرة، رغبت أن أخفي وجهي. فقد كان واضحاً أن أيامه بيننا باتت معدودة كوضوح الصوت الذي يطلقه جناحان يخفقان فوق الرأس.

كنت قد التحقت بجماعة كبيرة من الناس فاستطعت أن أمعن النظر في يوحنا قبل أن يراني وأن أراقب الحجيج وهم يتعمّدون ويرحلون. وبقيت.

ولم يستطيع أن يراني على الرغم من عزلة ذلك المكان الصحراوي. فقد اختبأت في ظلّ صخرة هناك، ولم أتقدّم منه إلا بعد أن رحل الآخرون واشتدّت حرارة الصخور. وما إنْ رآني حتى قال: «كنت أنتظرك».

كان في عينيه نور أشد من نور السماء، على الرغم من أنهما كانتا أكثر شحوباً من القمر. وكانت لحيته المتفرّقة طويلة. والشعر الطالع من أذنيه متلبّداً، مثل الشعر النابت في وجنتيه. وقد علق في لحيته جناح جرادة وساقها. ورحت أتساءل كيف يمكن لهذا الرجل الذي يعمّد الآخرين بالماء وينزل فيه مرّات كثيرة كل يوم أن يترك مثل هذه البقايا. فذلك لا يليق، حتى إن وجهه كان أشبه بوهدة تعيش فيها تلك المخلوقات الصغيرة.

وقال لي يوحنا وهو ينظر إلي: «أنت نسيبي». ثم قال: «كنت أعلم أنك اليوم تأتي».

وسألته: «كيف علمت؟»

وحينئذ أطلق يوحنا تنهّدة. وكان صوت نفسه موحشاً كصوت ريح تهبّ في الخلاء. وقال: «طُلب إليَّ أن أنتظرك، وقد تعبت. حسنٌ أنك أتيت».

وشعرت نحوه بقرب شديد فسارعت إلى الاعتراف بخطاياي. ولم أكن قد اقترفت الكثير بحقّ الآخرين. وحسبت أن ذلك يقلل من شأن الكبرياء التي أشعر بها كإنسان (فخطاياي كانت قليلة جداً). وأحسست أني فتىً متواضع وبريء، مع أنني كنت نجّاراً معلّماً في الثلاثين. وفتشت في داخلي لأجد شراً ارتكبته فلم أجد سوى لحظات من الإساءة لأمي وصراعات في الليل مع خواطر الشهوة، وربما بعض القسوة في الحكم على الآخرين.

وقال لي يوحنا: «حسن، يمكن أن تتوب أيضاً. فخطيئتنا أكبر مما نعلم».

وبينما كنت أنزل الماء، جاء يوحنا من خلفي، وبقوة أسد صحراوي، أمسك بأنفي وضغط بيده الأخرى على جبهتي، وألقى بي إلى الخلف في

twitter @baghdad_library

النهر. وشهقت وأنا أعبر بكلّ تلك السرعة من الهواء إلى الماء، وانقطع نفسي وابتلعت ماء كثيراً. غير أنـي رأيت أشياء كثيرة في تلك اللحظة، وحياتي تغيرت إلى الأبد.

هل كان **الروح القدس** نازلاً نحونا بهيئة حمامة؟ فحين خرجت من الماء، كانت الحمامة على كتفي. وشعرت أن أشياء كثيرة كنت قد أضعتها عادت إليّ، وأنني عدت إلى نفسي من جديد، رجلاً فقيراً، إنّما صالح وخيّر. ورأيت مجداً، فالسماء انفتحت للحظة وبدا لي أنني رأيت ملايين من الأنفس.

وللوقت جاء صوتٌ من السماء هاتفاً: «قبلما صوّرتك في البطن، عرفتك». وشعرت حينئذٍ بالخوف والغبطة معاً، على نحو لم يسبق أن عرفته. ورفعت وجهي إلى السماء وقلت: «أيها الرب الإله، إني ولد».

وتكلم الرب إليّ بالكلام الذي كان لإرميا النبي من قبلي. قال لي: «لا تقل إني ولد، لأنك إلى كلّ من أُرسلك إليه تذهب». وشعرت كما لو أن الرب مدَّ إصبعه وبارك فمي مثلما مسَّ منقار الحمامة شفتي. وأنَّ **كلمته** إليَّ كانت مثل النار المتأججة التي اشتعلت في عظامي يوم كنت في الثانية عشرة وجاءتني الحمّى.

وحينئذ رفع يوحنا يده عن رأسي ووقفنا في النهر. بعيداً طارت الحمامة. ولم يقل واحدنا للآخر سوى القليل. وسوف آتي إلى ذكر ذلك عمّا قريب. وحين مضيت، كنت أعلم أنني لن أراه بعد ذلك أبداً. وما إن انطلقت حتى شرع يرنّم، لكن ترنيمه كان لنهر الأردن، وليس لي. وكان مذاق النهر العكر البني لما يزل في فمي وغبار البريّة في منخري وأنا أنطلق في مسيري الطويل عائداً إلى البيت في الناصرة.

ـ 11 ـ

كان الوقت عصراً. الضوء فوق الصخور تحوّل إلى ذهب. وكنت لا أزال أسمع يوحنا المعمدان وهو يرنّم. ولأنه لم يكن يحفظ أيّ ترنيمة، فقد كانت الموسيقا التي تصدر من حلقه مثل صوت الكبش.

مشيت بقوة، ولم أَعُدْ مثل غيري من البشر. كانت ساقاي تقطعان خطىً أوسع من ذي قبل بكثير. فقد تعرّفتُ على الإنسان الآخر الذي كان يعيش في داخلي، ضمن قوقعتي، وكان أفضل مني. وصرت ذلك الإنسان.

سحابةٌ عظيمةٌ غطّت السماء. وهطل المطر غزيراً. ثم ارتفع قوس قزح ممتداً من طرف البريّة إلى طرفها الآخر، وكان بهاء الرب فوقي. وسرعان ما ارتميت على الرمل المبلل الساخن، فجاءني صوت الرب: «قُمْ على قدميك».

وحين قمت، قال لي: «لقد تكلمتُ مرة إلى حزقيال النبي وأنقذ شعبنا في بابل. والكلمة التي كانت لحزقيال هي لك الآن: يا ابن آدم، أنا مُرْسلك إلى بني إسرائيل، إلى أمّة قد تمردت عليّ، إلى ذات هذا اليوم. لأنهم بنون قساة الوجوه وصلاب القلوب. فتكلمهم بكلامي. لأنهم ليسوا شعباً غامض اللغة فلا تفهم كلامهم بل بيت إسرائيل. ها أنذا قد جعلت وجهك صلباً مثل وجوههم. فلا تَخَفْهم».

ثم قال هذا الصوت في أذني: «تلك كانت كلمتي لحزقيال. أما لك فأقول: أنت **ابني**، ولذا تكون أعظم من نبي. وأعظم من النبيّ حزقيال».

كان لا يزال أمامي ساعات طويلة لأقطع أرضاً بالكاد أعرفها. ومن جديد شعرت بالغبطة، ومن جديد شعرت بالخوف. وكان الإرهاق قد نال

twitter @baghdad_library

مني. وفكرت أن اللفائف التي لهجت بها منذ الطفولة لم تكن قريبة مني كما هي كلمات هذا الرب العليّ إلهي، غير أنني، وقد اقترب مني مثل هذا القرب، لم أستطع ألاّ أخاف. فصوته كان يُسمع في صدى الصخور العظيمة وهي تتساقط. ولم أكن أعلم كيف أعبد رباً أمكنه أن يصيب بالدمامل والبثور كل إنسان وبهيمة في أرض مصر، وأن يرسل البَرَد ليضرب جميع عشب الحقل، والنار حتى لم تَبْقَ شجرة واحدة. ورفعت يديّ صوب السماء كما لو أنني أسأل إن كنت حقاً من اختاره لكي يُظْهِر قوته. وقال لي الله: «لأنك لست قوياً بعد، لا تعد إلى موطنك. بل اصعَد الجبل الذي أمامك. امض الآن. وفي تلك البريّة، صُمْ بين الصخور. واشرب المياه التي تجري من تحتها. أما طعاماً فلا تأكل. وقبل أن تغرب الشمس على آخر أيام صومك سوف تعلم لماذا اخترتك».

وسرعان ما علمت أن قدرة الرب تحفظني. فبينما كنت أصعد الجبل، هبط الظلام وكان عليَّ أن أقاسم الأرض الحيّات والعقارب. غير أنها لم تدنُ مني. وفي الصباح صعدت أيضاً وبقيت أصعد هذا الجبل معظم النهار. وكان جديراً بذلك أن يَرِدَ في مراثي النبي أشعيا، إذْ يمكن القول إنّ الغاق والواق كانا يسيطران على الجبل.

أنّى توجهت كان الخلاء. وعلى الصخور، كانت النسور تحدّق بي، كلٌّ نسر ومعه رفيقته، جنباً إلى جنب. وتذكرت حينئذٍ أن يوحنا المعمدان كان قد سألني، عند الوداع: «ألم تَرَ نور الرب وأنت غاطس في الماء؟»

وبينما كانت عينا يوحنا تحدقان بي، كنت أتساءل إن كانت ملايين الأنفس التي رأيتها هي وجه الرب. غير أني لم أقل ليوحنا أيّ شيء عن ذلك واكتفيت بأن سألته: «أليس في رؤيته الموت والدمار؟».

وأجابني: «موت ودمار للجميع دون المسيح». ثم قال: «مرةً نزل **الروح القدس** عليّ. كان قريباً حتى إني وضعت يدي أمام عيني. لكن **الروح القدس** قال لي: سوف أترك لك أن تنظر ورائي. وترك لي أن أرى وراءه المهيب». ثم أمسك يوحنا بذراعي وقال: «كنت أعلم وأنا بَعْدُ طفل أن

نسيبي سوف يأتي بعدي ويأخذ مكاني. فقد كلمتني أمي أن أمك أخبرتها بكلّ ما جرى معها». وعندها قبّل وجنتي، وقال: «أنا أعمّد بماء، ويمكنني أن أطهّر كل نفس تابتْ صادقةً، مثلما يمكن للماء أن تطفئ النار. أما أنت فتعمّد بالروح. وتستأصل الشر برحمة الله». وقبّلني من جديد.

كان من الصعب أن أنسى نَفَس يوحنا المعمدان حين عانقني، فقد كان مفعماً برائحة الإنسان الهالك. رائحةٌ ما كان من الممكن فصلها عن الجسد ولو غسل المرء حلقه بالماء ألف مرّة. إعياءٌ يحكي عن كلّ ما فقده المرء وهو يكافح. غير أن جلده كان شريفاً ومفعماً بعزلة البريّة وصخورها. كما كانت تفوح من يوحنا رائحة مياه الأردن وحكمة طميه وطينه العميقة.

twitter @baghdad_library

ـ 12 ـ

على قمة الجبل، كانت الصخور منتصبةً مثل قبور، والمسافة بين الصخرة والصخرة غرّارة غادرة. الوقت منتصف النهار.وحرّ الشمس فوق رأسي.

جلست في ظلّ حجر كبير ورحت أرنو إلى أرض إسرائيل، إلى الجليل في الشمال واليهودية في الجنوب. كان السديم بلون الذهب، وحاولت أن أرى أبراج الذهب التي ارتفعت فوق تلال المدينة المقدسة. غير أني لم أفكر طويلاً بأورشليم؛ كنت جائعاً، بعد يومٍ كاملٍ دون زاد.

وأدركت لماذا أرسلني الرب إلى قمة هذا الجبل. فما كان يكفي أن أكون ابنه ونسيب يوحنا المعمدان. كان عليّ أن أمرّ بتجارب، وأولها أن أنقطع عن الطعام. وبينما كنت أقول لنفسي: «لن آكل قبل المغيب»، رد عليّ الرب.

لم أره، ولم أشعر بما يدلّ على حضوره سوى صوته (الذي كان في أذني)، وقال لي: «سوف تبقى صائماً حتى أقول لك أن تأكل».

ولم آكل في ذلك اليوم وما تلاه. وفي اليوم الخامس، أفسحتْ وخزات الجوع في معدتي لفراغٍ كاملٍ في الروح، وشعرت أني ضعيف خائر ولم أعد واثقاً من قدرتي على النزول من هذا الجبل. فقلت: «إلى متى، يا رب؟» وأجابني: «طويلاً. سيكون طويلاً».

ولأنني لم أكن هناك كي أجادله بل لأتبع مشيئته، أضحى الصيام أكثر يسراً. وحجبتُ نفسي عن الشمس وصرت أحب مذاق الماء والحكمة التي

وجدتها في ظلّ الصخور (قبل أن تبرد في الليل وتستعصي على كلّ حكمة). فنسيم الليل كان بارداً. ولم يكن من نبات على قمة ذاك الجبل. وهو أمر حسن تماماً. ذلك أنَّ ساعات قد مرّت بي هناك كان يمكن أن أزدرد الشوك فيها.

في الأسبوع الثاني، تراءت لي رؤى فيها الملك داود. وتذكرتُ أنه كان قد اقترف خطيئة عظيمة. ولم أستطع أن أستعيد الإثم بتفاصيله، غير أني كنت أعلم أنه عوقب، وأن الرب قد ظهر بعد موت داود لابنه، الملك سليمان، وسأله: «ماذا أعطيك؟».

فقال سليمان: «أيها الرّب إلهي، لا أَعْلَمُ الخروجَ والدخولَ، وعَبْدُكَ في وَسْطِ شَعْبكَ، شعبٌ كثيرٌ لا يُحْصَى ولا يُعَدُّ من الكثرة. فَأَعطِ عَبْدَكَ قلباً فهيماً لأميّز بين الخير والشّر».

وتذكرت كيف حَسُنَ كلام سليمان في عينيّ الرب فقال له: «لأنك لم تسأل لنفسك أياماً كثيرة، ولا سألتَ لنفسك غنى ولا سألتَ أَنْفُسَ أعدائك بل سألتَ لنفسك تمييزاً لِتَفْهَمَ الحكم، هو ذا قد أعطيتك قلباً حكيماً ومُمَيِّزاً».

وأعطى الرب لسليمان ما لم يسأله، غنىً وكرامةً، حتى إنه لم يكن رجل مثله في الملوك كل أيامه.

وحينئذ كان صوت الرب يقول لي: «سليمان لم يحفظ فرائضي ووصاياي. تكلم بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفاً وخمساً. وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان، فحكمته فاقت حكمة جميع ملوك الأرض. وجلب هؤلاء الملوك معهم فضة وعاجاً وقروداً وطواويس. لكن الملك سليمان أحبّ نساءً غريبة كثيرة؛ بنت فرعون، وموآبيات، وعمّونيات، وأدوميات، وصيدونيات، وحثّيات، من الأمم الذين قلت عنهم لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يُمِيلون قلوبكم وراء آلهتكم. أما سليمان فكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري، وكان في زمان شيخوخة سليمان أن قلبه

twitter @baghdad_library

لم يعد كاملاً معي. لقد أعطيته عطاءً كثيراً، ولذا لن أعطيك الغنى. ولن تمكث أبداً مع النساء، لئلا تخسر الرب».

لقد أعطاني الرب خطايا سليمان لأتفكّر بها، وتلك كانت مزية لم يعطها لسليمان. ولأنني كنت بلا زاد، لم أكن أرغب بالنساء، ولم أشعر أني في خصام مع ما قرره الرب لي. وواصلت صومي.

كان الأنبياء معي معظم الوقت في تلك الأسابيع؛ إيليا وأليشع، أشعيا ودانيال وحزقيال. واستعدت كلامهم وكأنه كلامي. وحلمت حلماً رأيت فيه أنني إيليا أتنازع مع أنبياء البعل. أكثر من أربعين من هؤلاء الأنبياء الوثنيين جاءوا إلى جبلي ليقرّبوا ثوراً، لكنهم هدموا قبل ذلك مذبح الرب على قمة الجبل. ثم تقطعوا بالسكاكين كي يظهروا إيمانهم بالبعل حتى سال الدم من جراحهم وهم يصرخون، ولم يكن مجيبٌ ولا مصغٍ.

وإذ رأيت البعل صامتاً أمامي، أخذت اثني عشر حجراً، بعدد أسباط بني إسرائيل، وبنيت مذبح الرب. ثم عملت قناةً حول الأحجار ورتّبت الحطب على المذبح وقطعت الثور ووضعته على الحطب. وبعد ذلك صببت أربع جرات من الماء على المحرقة حتى جرى الماء في القناة.

وحينئذ سقطت نار الرب على لحم الثور والحطب المبلل والحجارة الرطبة ولَحَسَت المياه التي في القناة. فذبحتُ أنبياء البعل الأربعين أولئك بالسيف، واستيقظت عندئذ.

وأدركت آنئذ أنني لست إيليا وإنما كنت أحلم بأشياء في لفافته، وأن هذا الحلم قد جاءني ليقول لي إن صومي لا بد أن يتواصل أربعين يوماً وأربعين ليلة. وإنَّ عليَّ أن أبدل طرقي وعلى شعب إسرائيل أن يبدل طرقه، لئلا يديننا الله في دينونته الأخيرة.

وأدركت أيضاً أنني قد قضيت فتوتي أفكِّرَ بالخشب الذي أُعْمِل فيه عدتي أكثر مما أفكر بشعبي. وأنني لم أصغ إلى يوسف حين كان يقول: «يدُ الجميع في خطيئة إسرائيل وإثمها لأننا لم نجهد في وضع حدّ لذلك».

ولم أكن بعد أعلم أني سأُعنى بالخطاة أكثر من الأتقياء، وكنت مكتفياً بترداد كلام أشعيا: «وإن كان شعبك يا إسرائيل كرمل البحر، ترجع بقية منه». وآنئذٍ، قرب الأسبوع السادس من صومي، كنت آمل، وقد امتلأت بروح أشعيا، أن أعيد بعون من بقية اليهود الصالحين هؤلاء كل ما ضاع في الأمة. ولذا رحت أكرر أقوالَ أشعيا بصوت مرتفع، وأنطق بها في عين الشمس حتى احترقت عيناي واضطررت للعودة إلى الظلّ. ورحت أفكر بالصلوات التي سأتلوها على الخطاة، وقررت أن أقول لهم كما قال لهم أشعيا: «اغتسلوا، تنقّوا؛ اعزلوا شرّ أفعالكم؛ انصفوا المظلوم».

وجاء اليوم الأربعون. وفي أول الصباح قال الرب لي: «غداً تنزل الجبل وتأكل». وما إنْ سمعت كلامه حتى عاودني الجوع، بل تضورت جوعاً.

وفيما كنت أفكر ماذا آكل، قال الرب: «ابق الليلة على الجبل، سيأتيك زائر».

twitter @baghdad_library

ـ 13 ـ

لم يلبث أن وصل الزائر. وسيماً مثل أمير. وقد وضع حول عنقه سلسلة ذهبية فيها حلية ذهبية رُسم عليها وجه كبش، وجهٌ وحشيٌ لكنه أكثر نبلاً ومهابة من أي كبش رأيته في حياتي. أمّا شعر هذا الأمير فكان طويلاً مثل شعري ولامعاً. وقد ارتدى ثوباً من المخمل القرمزي بلون الغسق، ووضع على رأسه تاجاً ذهبياً كالشمس. ومع أنه كان قد صعد الجبل، لم أجد غباراً على ثيابه أو عرقاً على جلده. ولم يكن سوى من فكرت به، والحق أنّه سرعان ما قدّم نفسه. وقلت لنفسي: «**الشيطان** أجمل مخلوق صوّره الله».

أوّل كلماته إليَّ كانت: «أتعرف كيف مات النبي أشعيا؟».

وتغلّبت على الموقف بالصمت، فاضطررت أن أصغي إليه وهو يقول: «لقد قتله ملك يهودي، هو مَنَسّى الوثني، من عصبة أمون. يهودي فاسد». وهز **الشيطان** رأسه كما لو كان يهودياً صالحاً (مع أنني كنت متيقناً أنه ليس كذلك!) ثم رفع إصبعاً وراح يتكلّم من جديد: «كان مَنَسّى هذا راغباً في أن يهدم ديانة آبائه، فأرسل أمراً ملكياً بأن يُقْتَلَع أشعيا من بيته في المدينة ويُقْنَصَ مثل بهيمة. ولما سمع أشعيا بذلك فرَّ إلى البريّة، وجدّ جنود مَنَسّى في طلبه هناك. وراح أشعيا يفتش عن وَجْر في شجرة يَتّسع لإنسان أن يختبئ فيه. وقد وجد مثل هذا الملجأ في بلوطة كبيرة اهترأ وسطها، فاختبأ فيه. غير أن جنود مَنَسّى اكتشفوا مكانه وجاءوا بمنشار كبير وقطعوا الشجرة وأشعيا نصفين. ومات أشعيا وهو يصرخ». وسألني **الشيطان**: «هل تعلم ذلك؟»

قلت: «لم أسمع أنه مات هكذا»

فضحك **الشيطان** لقولي. وشعرت أن قصته هذه قد أضعفتني أكثر من كل الحرمان الذي عرفته في الصيام.

ولم يتوقف عن الكلام. قال لي: «لا حاجة بك لأن تخشى من مثل هذا الموت، فأنت لست نبيّاً بل **الابن**! ومع أن ذاكرتي ليست بالضعيفة، فإنني لست أذكر أن الرب قد عمل من قبل مثل هذا. والحقّ أنني إذْ أنظر إليك أطيل التفكّر. فأنت تبدو أكثر براءة من كل الذين عرفتهم».

ونظر إلي بحنان. بعينين من مرمر أسود، لكن الأنوار كانت تشعّ منهما. وقال: «هل أنت جائع؟ أتريد شراباً؟» وقدّم لي إبريق شراب وساق حَمَل، طُهيَتْ أحسن طهي، ولم أكن قد رأيتهما تحت ثوبه قبل أن يعرضهما أمامي. وعندئذ اقترب منّي كثيراً حتى أن منخريَّ أُخذا برائحة الشراب ومرق اللحم، بل وبرائحة **الشيطان** نفسه، التي اخترقت سحابة صغيرة من العطر كانت تنبعث من طيات ثوبه. بيد أني شممت أيضاً رائحة الطمع التي كانت تتصاعد من جسده، أشبه بتلك الرائحة التي تقطن بين الإليتين. ولذا رفضت طعامه، مع أن روائح جسده الأخرى كانت تثير شهيتي مثل النكهة التي تنبعث من تنّور فيه شواء. وحين لاحظ احتراسي ابتسم مرة أخرى وقال: «أعلم بالطبع أن لا حاجة بك إلى الطعام. فأنت **ابن الله**، وتستطيع بيسر أن تأمر هذه الحجارة فتصير خبزاً. وهذا أحسن طعام عند الإيسيني. غير أن رداءك متّسخ مغبر. والحقّ، أن كونك **ابن الله** يدهشني. لماذا اختارك **أبوك**؟ قل له حين تتحدث إليه إنني أحييه. هل تعلم لماذا؟ **أبوك** وأنا كان بيننا لقاءات كثيرة وقدرٌ كبير من الشقاق، وكل منا يتلهف لسماع أخبار الآخر وما يفعله. وفي المناسبات التي نلتقي بها، أقول له إن الرجال والنساء هم تاج كل ما حُبلَ به بين البهائم ونبات الحقل وإنني أنا، وليس هو، من يفهم هذه **الخليقَة** على أفضل وجه. لقد أطلق كثيراً من المخلوقات الصغيرة والأرواح التي لا يعرفها كما أعرفها. فقد كنت خادمه ذات مرّة،

twitter @baghdad_library

خادمه الموثوق أكثر من أيّ أحد آخر. ولك أن تتصور، إذاً، إلى أيّ مدى أفهمه».

وبُهتُّ. فهو لم يُثِرْ فيَّ الخوف بل الراحة. وشعرت كما يشعر خاطئ يحتسي الخمرة في حانة وضيعة. متاعب الصيام الطويل ولّت؛ وشعرت كأن بلسماً يداوي أطرافي. لقد تكلمت مع **الشيطان**؛ وكان مريحاً. وإن تكن رائحته قد أزعجتني، إلا أنها مدّت يداً ودودة إلى رغبات لم أكن قد سمحت لنفسي أن أحسّ بها.

غير أنني وإن كنت قد سمحت له بالكثير، لم أوافق على أن الله، **رب الكون، لا يعرف خليقته** أفضل من زائري. وصرخت: «مُحَالٌ. فالقدرة كلها في يديه. السموات والأرض، الكواكب والشمس، تنحني أمامه. ولا تنحني لك».

وللحظةٍ، **نخر الشيطان** مثل حصان، وبدا وكأنه يرفض اللجام.

قال لي: «ليس **أبوك** سوى إله واحد بين آلهة كثيرة. وعليك أن تحسب حساب تلك الآلهة التي لا يحصرها العدّ ويعبدها الرومان. أَمِنَ الواجب ألا نحترم مشيئة الرومان العظيمة؟ لماذا، إن **أباك** لا يملك القدرة على أن يأمر حتى يهوده في أرضهم مع أن الكثيرين منهم يرونه الإله الوحيد. خيرٌ لك أن تنظر إلى سورات غضبه. فهي لا تليق بإله عظيم، بل منتفخة ومفرطة. إنه يطلق تهديدات كثيرة جداً. ولا يحتمل مُخَالَفَةً من أحد. وها أنذا أُسِرُّ لك أن شيئاً من التمرد وبعضاً من الغدر هما من متع الحياة، وينبغي أن نعدّهما من بين مغانمها وليس شرورها».

وأجبته: «ليس الحال كذلك. **أبي** الله، وله أبعاد كثيرة، له الأبعاد جميعاً». لكن طعم كلماتي هذه كان كطعم القش.

قال لي الشيطان: «**أبوك** لا يسيطر على نفسه».

ـ 14 ـ

لم يُبْدِ **الشيطان** أيّ خوف ممّا قاله. وظلّ يتكلّم. قال: «ليس **لأبيك** الحقّ في أن يطلب طاعة مطلقة من شعبه. وهو لا يُدرك أن النساء مخلوقات تختلف عن الرجال وتعيش بفهمٍ مختلف. والحق، أنَّ **أباك** ليست لديه أدنى فكرة عن النساء؛ وهو يتقاسم احتقاره لهن مع أنبيائه، الذين يتكلمون بصوته، كما يزعمون! وذلك صحيح! فهو نادراً ما أنَّبهم! انظر إلى أشعيا! قل لي إن أشعيا لم يكن يعيش في قلب **أبيك** حين قال: «من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزاتٍ بعيونهن، وخاطرات في مَشْيهنَّ ويخشخشن بأرجلهن، يُصْلِعُ الرب هامة بنات صهيون، ويعرّي الرَبّ عورتهنَّ». «عورتهنَّ»، كررها **الشيطان**، ثم تابع كلام أشعيا: «ينزع الرب زينة الخلاخيل، والضفائر، والأهلّة، والحلق، والأساور، والبراقع، والعصائب، والسلاسل، والمناطق، وحناجر الشَّمامات، والأحراز، والخواتم، وخزائم الأنف، والثياب المزخرفة، والعُطْفِ، والأردية، والأكياس، والمرائي، والقمصان، والعمائم، والأُزر، فيكون عِوَضَ الطيب عفونة؛ وعوض المنطقة حَبْل؛ وعوض الجدائل قَرَعَةٌ؛ وعِوَضَ الديباج زُنَّار مِسْح، وعوض الجمال كَيّ».

قلت له: «كان **أبي** يتكلم عن أمة صهيون. هكذا تعلمنا».

وأجابني **الشيطان**: «لا. كان يتظاهر بأنه يتكلم عن أمة صهيون. إنه يحط من قدر النساء. ويدخر لعناته العظيمة للرجال. وحين يرغب بأن يخاطب أمة إسرائيل، لا يكلم سوى الرجال: (لأن للرب سخطاً على جميع الأمم، وحُمُوّاً على كل جيشهم، قد حرَّمَهُمْ، قد دفعهم إلى الذبح.

twitter @baghdad_library

فقتلاهم تُطرَح وجيَفُهم تصعد نتانتها وتسيل الجبال بدمائهم). يا له من سخط! إن إخفاقاته تشتعل في قلبه! هل يشكُّ في أنه قديرٌ كلُّ القدرة بيديه؟ لا! ولكنه لا يملك روحاً تكفي لأن يقول: (حقاً، لقد خسرت، غير أن جنودي كانوا صادقين وقاتلوا كما يجب). لا، هو حاقد، توّاق إلى الانتقام. (القصر قد هُدِمَ، الأكمة والبرج صارا مَغَايِر إلى الأبد، إلى أن يُسكب علينا **روح من العلاء**). هكذا يقول أشعيا».

وتساءل **الشيطان**: «متى سيسكب **الروح** علينا؟ لقد أرسلك **أبوك** لكي تغيّر قلوب البشر أما قلبه فمعجون بدماء أولئك الذين ذبحهم. وحبّه لكل ما خلقه مشدود بإحكام إلى لعناته. لكن سخطه العظيم هذا لا يشبع رغباته. ولغته تكشف كم يهيم بالعظمة والفخامة التي يزعم أنه يزدريها.

أبوك هائم بالنساء. وهو يُخفي ذلك عن نفسه! إذْ يكره أن يغوينه. وحزقيال يعلم ما في قلب **أبيك**. وقد سمع الربَّ يقول: (حلفتُ لكِ ودخلتُ معكِ في عهدٍ، فَصِرْتِ لي. فَحَمَّمْتُك بالماء، وغسلتُ عنكِ دماءكِ، ومسحتكِ بالزيت. وأَلْبَسْتُكِ مُطَرَّزَةً، وأزَّرتكِ بالكتّان، وكسوتك بَزّاً، وحلّيتكِ بالحُليِّ، فوضعتُ إسورةً في يديكِ وطوقاً في عنقك، ووضعتُ أقراطاً في أذنيكِ، وتاجَ جمال على رأسك. فتحلَّيتِ بالذهب والفضة، وأكلتِ السَّميذ، والعسل، والزَّيت. وجَمُلْتِ جداً جداً، فَصَلُحْتِ لملكةٍ. وخرجَ لك اسمٌ في الأمم لجمالك الذي جعلتُه عليكِ). واسمع الآن كيف يشتكي! إنّ شكواه لتثير الشفقة: (فاتّكلتِ على جمالك، وزنيتِ على اسمكِ، وسكبتِ زناكِ على كل عابر، فكان له. وزنيتِ مع جيرانك، بني مصر، الغُلاظِ اللحم؛ وزنيتِ مع بني آشّور إذْ كنتِ لم تشبعي.

فلذلك، يا زانية، من أجل أنه قد أُنْفِقَ نحاسكِ، وانكشفت عورتكِ، ها أنذا أجمع جميع محبّيك الذين لَذَذْتِ لهم؛ فأجمعهم عليكِ من حولكِ، وأُسلمكِ ليدهم، فَيَهْدِمون قبّتك، وينزعون عنكِ ثيابك، ويأخذون أدوات زينتك ويتركونكِ عريانةً وعاريةً، ويرجمونك بالحجارة، ويَقْطَعونَكِ

بسيوفهم. ويحرقون بيوتك بالنار، ويُجْرُون عليك أحكاماً قُدّام عيون نساءٍ كثيرةٍ. وأَكُفُّكِ عن الزنا)».

وتساءل **الشيطان**: «أيحدث كلّ هذا احتقاراً لأورشليم؟ حريٌّ بك أن تقول إن لغة **أبيك** تتفصد رغبةً».

قلت له: «كلامك دنس». كنت آمل أن أثير ما يكفي من النقمة في داخلي، غير أنني لم أستطع سوى أن أكرر: «كلامك مسموم».

وجاء رد **الشيطان**: «لسان **أبيك** يقطر شهوة مثل لساني».

لقد ارتبكتُ. هل أُنْكِرَ أن حقوي ارتكضا وأنا أسمع **الشيطان** وهو يعيد عليَّ كلام **أبي**؟

وقال لي **الشيطان**: «تحسب أنك جالس على قمة الجبل، غير أننا لم نعد هناك. لقد ارتفعنا إلى مكان فوق الأماكن المقدسة».

كانت معرفته بالرؤيا التي أراها معرفة كاملة. فآنئذ كنت أرى مدينة أورشليم، وكانت تحتنا. فنحن لم نعد على قمة الجبل. بل على أعلى قبة من قباب الهيكل في أورشليم؛ على جناح الهيكل.

شعرت بالدوار.

وفي تلك اللحظة قال لي **الشيطان**: «لأنك **ابن الله**، يمكن لك أن تطرح نفسك من هنا إلى أسفل! اطرح نفسك. ملائكة أبيك سوف يحفظونك».

وشعرت بنوع من الإغراء يدفعني لأن أقفز. غير أني شعرت فجأة وكأنني لست **ابن الله**. كأنني لم أَعُدْ كذلك!

ثمة هاوية كانت تحتي. وكنت أعلم أنها ستبقى هناك على مدى الأجيال القادمة. كلما وقفوا على مرتفع، سيعيشون في مهبّ تلك الروح الجامحة التي تقطن في نفسنا محمَّلة برعب القفزة. وعندئذ نظر **الشيطان** إليَّ ثانية بعينيه القاتمتين، وكانت نقاط الضوء فيهما مثل نجوم في الليل؛ عينان تَعِدان بالمجد. قال لي: «إن بقيت مع **أبيك** سوف تعمل على خدمته. سوف تُسْتَنْفَد. اقفز! يمكن أن تنقذ نفسك. اقفز!»

twitter @baghdad_library

سوف أتحطّم. ولكن هل سيكون فنائي قصيراً؟ وهل ستكون عودتي إلى الحياة سريعة؟ لقد أخذني **الشيطان** إليه. ومن الضوء في عينيه القاتمتين، عرفت ما لديه من كلام مع أنه لم يقل شيئاً. فإنْ قفزت، تملّكني **الشيطان**. وأكون قد قفزت إلى موتي بأمره.

وعندئذ صرخ: «ستولد من جديد. في السرّ. ولن يعلم الله. أَقْدِر أن أصرف انتباهه».

وراح يحكي عن حياة قادمة. وأنها ستكون سخية وافرة. وصرخ **الشيطان** بملء فيه: «كلّ ذلك لي».

والحق أن الطمع كان معبوده. ومن الطمع الفجّ الصريح تأتي أعمال عظيمة القدرة. قال **الشيطان**: «أولئك الذين يُخلصون لي يسيطرون على الأرض سيطرة لا تترك منفذاً لذلك البعر، الذي لا يليق إلا بعنزة، والذي يتساقط من وجنتي صديقك يوحنا الناتئتين. فهو لا يرتاح في **السبت**! وفي بقية الأيام يحمل معزقته ليغطي فضلاته».

وتساءلت، في تلك اللحظة ذاتها، إن كنت أقدر أن أقفز دون أن أقع. أيمكن أن أطير مع الملائكة؟ بقدرة يهبها الرب لي، أيمكن أن أطير؟

كيف لي أن أعرف؟ **فالشيطان** كان واقفاً بين **أبي** وبيني. ولكن هل يقدر أن ينكر أجنحة الملاك؟ لم أقفز. أردت ذلك، لكنني لم أجرؤ. وقلت لنفسي: «لن أعبد الله بقلب ابن جسور بل بقلب ابن متواضع». أجل. ألم أقض أكثر من نصف عمري وأنا أعمل بدقة واحتراس بحركاتٍ صغيرة، كثيرة، متكررة، مع أسرار الخشب الصغيرة؟

وفي ذلك الحين ارتسمت في ذهني فكرة غامضة عن السبب الذي دفع الرب ليختار مريم ويوسف عائلة لي. وقلت: «اذهب، يا **شيطان**»، وكان صوتي ضعيفاً، فقلت ثانية: «اذهب، يا **شيطان**»، وكان في صوتي هذه المرة مزيد من القوة. تلك القوة التي تأتي من الجوع والفراغ. ورأيت حكمة الرب. فالصّوم نفسه فيه قوة، وهي أعظم قوة يمكن للمرء أن يدفعها في وجه **الشيطان** الذي يكره الفراغ والجوع. ومن أشد وحدة من **الشيطان**؟ لقد كانت

لدي القدرة أخيراً على أن أنظر في عينيه وأقول: «لا أريدك أنت. أريد **أبي**». غير أنني، وأنا أقول هذا، شعرت بنوع من الأسف، أسفٌ عابر قصير غير أنه كان شديداً. كنت أفقد شيئاً رغبت به، كنت أفقده إلى الأبد.

وأطلق **الشيطان** صرخة مدوية كبهيمة شُجَّت بحربةٍ للتّو. «**أبوك** سيدمر **خليقته**. لأتفه الأسباب!». ثم رحل. وبقيت أنا ورؤيا رأيت فيها الملائكة وقد اجتمعوا حولي يغسلون عينيّ. ونمتُ. كنت منهكاً كما لم أُنْهَك من قبل أبداً.

أَفَقْتُ في الصباحِ لأرى نفسي على ذلك الجبل حيث قضيت أربعين يوماً. وكنت مستعداً للنزول فنزلت. كان الطريق إلى الناصرة طويلاً ومقفراً. ومن حسن حظي أنني لم أصادف لصاً أو قاطع طريق على مدى أيام ثلاثة. فالوقت الذي قضيته مع **الشيطان** كان قد أنهك قواي. وأنفاسي تقطّعت. ولم أكن أشعر أني قد نجوت تماماً.

غير أني لم أكن شارد الذهن مبدَّداً. وفي مسيري، كنت أتلو ما قاله أشعيا: «يُولَد لنا ولد؛ ونُعطى ابناً؛ وتكون الرّياسة على كتفه؛ ويُدعى اسمه عجيباً، مشيراً، إلهاً قديراً، **أباً** أبدياً، أمير السلام». ولأنني كنت أقلّ شأناً بكثير، فقد افترضت أن الله قد اختارني **ابناً** له لأنني ولدتُ وعشتُ وسط عامة الناس لا مثل الملوك. فكنت أقدر أن أتفهّم الكثير من فضائل الآخرين الصغيرة وعاداتهم البعيدة عن الحكمة. فإذا ما استطعت أن أضاعف قدرتي (وكنت أعلم أن الله سيمنحني قدرات كثيرة)، ربما ضاعف عالم البشر فضائله معي. ولذا كان عليّ أن أؤمن **بأبي**. وأن أخدمه. فيأتي للوقتِ وينقذ أورشليم. **رب الكون** هو. وسأخدمه بقلب مسرور. وسيمنح العزاء للحزانى، ويُطعم الجوعى، بل وسيجد أولئك الخطاة الذين لا أمل لهم أن خطاياهم قد غُفرت. وشعرت ببهجة تغمرني إزاء هذه الأفكار حتى إنني لم أصدّق أنها أفكاري. والحقّ أن **الشيطان** لا بدّ أن يكون قد خدش قدرتي على الحكم، إذْ كنت مهيأً للقيام بأيّ شيء. غير أني في ذلك

twitter @baghdad_library

الصباح الجديد لم أكن أشعر بخوف شديد من **الشيطان**. فهو لم ينتزع مني سوى جزء يسير. وقد جُرِّبْتُ، وأثبتُّ أني مخلص صادق، ورحت أحسّ أن لساني طاهر نظيف. وبينما كنت أمشي، كان ثمة معجزات صغيرة لطيفة. فقد وَقَعْتُ في هذه الصحراء المقفرة على شجيرة تحمل خوخاً روى ظمأي وأدفأ أوصالي. فسجدت وباركت **الخالق**، لكني لم أكد أبدأ صلاتي حتى وقفتُ على قدمي من جديد.

كان السؤال ينغل فيَّ. لماذا تركني **الرب** مع **الشيطان** وحيداً؟ أَمِنْ أجل أن يعاقبني على إفراط في التُّقى؟ سريعاً توصلت إلى أن في ذلك قسطاً وافراً من الحقيقة. فثمة عمل ليُعْمَل، ولا يمكن أن يتمّ والمرء ساجد على ركبيته.

- 15 -

رجعتُ إلى الناصرة ودخلت البيت حيث كنت أعيش وأمي. وما إنْ سلمت عليها حتى بدت في وجهها علائم الارتياح. فطيلة أكثر من أربعين يوماً كنت بعيداً عن البيت، وكانت قد افترضت في البداية أنني في رحلة مع نسيبي، وراحت تصل إلى مسامعها قصص مخيفة عن يوحنا. (وقد حدث كل هذا حين كنت على الجبل). فهيرودس أنتيباس، ابن الملك هيرودس الميت، لم يكن مرتاحاً ليوحنا المعمدان. ومثل أبيه، كان أنتيباس يعاني من أحلام تأتيه في الليل؛ وخشي أن يحرّض النبيُّ الشعبَ فيقوموا عليه. ولهذا فقد حَبَسَ يوحنا في سجن داخل حصن على الجروف المرتفعة فوق البحر الميت. وهكذا أدركت أن ساعتي قد أزفت. وعليَّ أن أترك الناصرة. وأن أعيش عيشة كرازة وأحاول أن أحاكي ما فعله يوحنا.

لكن أمي ما كانت لترغب في أن أكون مبشّراً. وما كانت لتتصورني ساعياً في الدروب الموحشة أمنح البركات للغرباء؛ بل رأت أن من الأفضل بكثير أن أكون إيسينياً صالحاً، وأن ألتحق بجماعة الصحراء في قمران، حيث التأم شمل الأتقياء. غير أنني ما كنت أرغب بهذا. فأولئك الذين اختاروا العيش في قمران عليهم أن يعترفوا أولاً بذنوبهم وخطاياهم، وأن يتخلّوا لأخوتهم عن كلّ ما يملكون، ويعيشوا بينهم سنوات قبل أن يمكن قبولهم إيسينيين أقحاح في قمران. ومن ثم فإن الواحد منهم ما كان ليتكلم أمام رؤسائه ما لم يُدعَ إلى ذلك.

ولم أفهم كيف أمكن لأمي أن ترغب لي بمثل هذه الحياة. فمن ينبغي أن أخضع له كي يجرّبني هو الرب وليس هذا الرئيس أو ذاك من رؤساء

twitter @baghdad_library

الكهنة. والحال أن فهم أمي لم يكن يسيراً على الدوام. وإذا ما كانت فخورةً بأصلي ونسبي، فقد كانت كذلك شديدة القلق على مصيري؛ ونادراً ما مرَّ يوم دون أن تنتظر مصيبةً تحلُّ بي. كان الخوف يسكن في منزلنا مثل بهيمة ليلية. والمرء يقوى على كلّ شيء ما عدا سماع أصوات الجري في الظلام.

وإذا ما كانت مريم متواضعة، فقد كانت مختالة كذلك. وكان عليَّ أن أعاني من الحالتين، لأن إرادتها مقدودة من حجر. والغريب أنها لم تكن ترى نفسها قوية، بل ضعيفة سهلة الانقياد. والأسوأ أنها كانت ترى أنني مثلها، ولست مهيئاً لأن أخرج إلى العالم. ولم أكن مسروراً لثقتها الضئيلة بي، إذْ كنت أدرك حينئذٍ كلّ ما ينبغي عليَّ أن أفعله.

لم أقل لها ما جرى في الأربعين يوماً على الجبل، ولا بد أنها كانت تعلم أنني قد اقتربت أخيراً من **أبي**. غير أنها ما كانت لترغب بسماع شيء عن ذلك. كان قلبها كبيراً مثل ملكة. ولكنها مثل ملكة، لم تكن لِتُسَرَّ بما لا تقدر أن تفهمه.

غير أنها أمّ. وكانت تعرفني حقّ المعرفة. واستطاعت أن تحدس بأن من كان معي على الجبل لم يكن **أبي** وحده إنما **الآخر** أيضاً. ولأن **الشيطان** كان قد جمع تحت إمرته قوى الظلام، فقد رأت أن بي من الضعف ما يكفي لأن أتلوَّث وأفسد. وأن عليَّ من أجل ذلك أن أسعى إلى جماعة من الأتقياء ترشدني وتهديني. ويمكن القول إنها لم تيسّر طريقي أمامي. ولم أُسَرَّ بهواجسها وقدرتها على التكهّن بحوادث معينة.

وفي خضم هذا النقاش الهادئ العقيم جاءنا ما يحوّل عنه انتباهنا. كان عرسٌ في قانا، بلدة غير بعيدة عن الناصرة. ووالد العروس، وهو رجل ثري كان مرة قد أجّر يوسف ونجّاريه ليبنوا له بيتاً فاخراً، دعا أمي، وأنا، وأخويَّ، يعقوب ويوحنا، إلى هذا الزفاف. وكانت تلك أول مرّة تغادر فيها مريم البيت منذ أن مات يوسف. وقد ترددتْ في الذهاب فوصلنا متأخرين وكانت المراسم قد انتهت. ونظرت أمي، المرتبكة كثيراً، حولها وقالت:

«ليسَ لهمْ خَمْرٌ». والحقّ أنّ الخمر كانت قد فرغت لكثرة من جاءوا من القرية للاحتفال.

صوتها كان يقول لي إن السعادة سرعان ما تغادر حين يجفّ حفل الزفاف ويفرغ من الخمرة؛ وهذا فألُ نحس للزوج والزوجة الجديدين. ولذا فكّرت في أن أجرّب تلك القوة التي يُفْتَرَضُ بي أن أكون قد امتلكتها.

أمامنا كانت ستّة أجران من حجارة قد مُلئتْ ماءً، وعلى مائدةٍ كان عنقود أحمر واحد، ليس إلا، فأخذت ذلك العنقود وأكلته على مهل وأطلت التفكّر **بالروح** المقيم فيه. والحقّ أنني شعرت بملاك إلى جانبي. وفي تلك اللحظة، تحول الماء في الأجران خمراً. كنت واثقاً من ذلك. ولم يقتض الأمر أكثر من تذوّق كامل العنقود وملاك واحد.

شعرت أنني قريب من **ملكوت الله**. وعلمت حينئذ أن هذا **الملكوت** وافر الجمال. وأن أبي ليس إله النقمة وحسب، بل إله الرأفة والحنوّ يمنحها باللطافة التي في لمسة يدٍ عطوفة. غير أني كنت حزيناً أيضاً. فقد رأيت في رؤيا حفلاً عظيماً لم أر مثله قبل. ولذا لم يَطُلْ بي المكوث، ورغبت في الرحيل؛ إذ يمكن ليعقوب ويوحنا أن يعودا بأمي إلى البيت.

وبينما كنت أغادر سمعت عمّ العروس يقول للعريس: «كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً، ومتى سكروا، فحينئذٍ الدُّون. أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن فزواجك سيكون مباركاً».

كانت هذه بداية آياتي، فعلتها في قانا الجليل. ولم أكن متعجّلاً وراء المديح. ذلك أن الملاك الذي أرسله **أبي** همس في فكري: «يمكن للابن الأحمق أن يبدد مستودع آياته بالسرعة التي يفرغ بها برميل طافح بالعسل». ولذا لم أقل لأمي. كان يكفي أنها سُرَّت لتوافر الخمر في النهاية، وكانت في مزاج أفضل حيال رحيلي. ففي الصباح انطلقت وليس معي سوى عصا، وعباءة، وحذاء، ودموع أمي.

twitter @baghdad_library

ـ 16 ـ

فكّرت أن أكرز في كفر ناحوم، على مسير نصف يوم من الناصرة. وكنت لا أزال أجد في أشعيا النبيّ مرشدي، على الرغم مما قاله **الشيطان**. وكان أشعيا قد قال: «طريق البحر عبر الأردن، جليل الأمم، الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً». وهكذا اخترت كفر ناحوم. كانت على بحر الجليل (وهو ليس إلا بحيرة لكنها واسعة وسع بحر)، ونهر الأردن يجري من هناك جنوباً إلى أورشليم.

قبل أن أغادر إلى كفر ناحوم قررت أن أتكلم في مجمع الناصرة. فلساني لم يكن كيديَّ حين تعملان بالخشب، ولذا فقد خطر لي أن أبدأ حيث يعرفني البعض على الأقلّ.

في البداية لم أستطع أن أقول للجمع سوى: «توبوا، لأنه قد اقترب ملكوت السماء. قد كَمَلَ الزمان واقتربت النهاية». ولم تغلّ هذه الكلمات سوى الصمت. كيف سيواجه هذا الشعب **يوم الدينونة**، الذي اقترب كثيراً؟ كان صباحاً مشمساً في الناصرة. وغرقتُ في أفكار جديدة أنَّ الإيمان، حتى حين يكون شديداً، ينبغي أن يظلّ طبيعياً، طبيعياً كالنَّفَس، فقلت أيضاً (بعبريتنا القديمة هذه المرّة): «أحمدك، أيها **الآب**، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال».

وقد قرأتُ بعد ذلك ما كتبه لوقا في إنجيله.

«امتلأ غضباً جميع الذين في المجمع حين سمعوا هذا. فقاموا وأخرجوه خارج المدينة، وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيّة عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. أما هو، فجاز في وسطهم، ومضى».

لوقا لم يكن يهودياً. وروايته هذه ضرب من المبالغة؛ إذ كان يكره اليهود. ولأنني كنت أتكلم في المجمعِ الذي اعتدت على الذهاب إليه منذ حداثة سني، ما من أحد كان مستعداً لأن يهزأ بي أو يسخر مني. غير أني شعرت بالضحك يدبّ ويزحف من تحت أقدامهم. سخرية أشبه بفئران تعدو صامتة فوق أصابع قدميّ. وكنت أسمع همساتهم قبل أن يهمسوا بها: «النجّار يقول لنا أن نتوب». «ما الذي يخفيه الرب عن الحكماء والفهماء ويبديه لأولاد؟».

وهكذا أدركت أنَّ عليَّ أن أكرز في أماكن لا تعرفني. وإذ أخذتُ على عاتقي كلّ هذا، وبينما كنت في طريقي من الناصرة إلى كفر ناحوم، شعرت بأن قلبي لا يزال مرضوضاً من جرأة **الشيطان** في تطاوله على الرب. خاصة أن **أبي** لم يرد عن نفسه.

وفي تلك اللحظة، وفي خضم هذه الأفكار، زلّت بي قدمي على الدرب، وكانت تلك خطوة خاطئة غريبة. شعرت بنوع من الثقل، مع أنني كنت رشيقاً. ثمة ذراع قوية دفعتني إلى الأرض. وصوتٌ قويٌ قال في أذني: «كلام الأنبياء ليس كلامي. أنبيائي صادقون لكنهم يبالغون».

واكتفيت بالقول: «يا رب، أشعر أني ضعيف. وتعوزني الفصاحة».

قال الرب: «أجل، هكذا قال موسى: (أيها السيّد، أنا ثقيل الفم واللسان). وقلت له كما أقول لك الآن: (من صَنَعَ للإنسان فماً؟ أما هو أنا الرب؟ فالآن، اذهب، وأنا أكون مع فمك وأعلّمك ما تتكلم به. وكلامك لا ينزل الأرض».

ازداد يقيني بهذا الوعد الذي قطعه الرب لي. وقال **أبي** أيضاً: «يمكنك أن تبلو بلاءً حسناً في كفر ناحوم. لا تقل إلا شيئاً واحداً مرّات كثيرة. هذا الشعب مثل حجارة وهم بكمٌ. ولذا قُلْ لهم مرّة بعد مرّة: (هكذا يقول الرب: لا يهمنّكم ما تسمعون. فالكلمات مخلوقاتي أيضاً، وهي تسلك دروباً كثيرة».

twitter @baghdad_library

حين وقفت على قدمي، شعرت **بالروح** يغادرني إلى أعلى. وسمعت أجنحة تخفق فوقي لمخلوقات لم أرها، وبعدها صوت آلاف العربات، وأصوات صاخبة لعلها تصلني من الجانب الآخر لتلٍ هناك. وتكلّم الرب من جديد: «حين تؤمن بي، ستجري المعجزات في يديك، وعينيك، وصوتك».

أجل، يد الرب كانت قوية. وجئت إلى كفر ناحوم.

- 17 -

فيما كنت ماشياً عند بحر الجليل، أبصرت صيّادَين يلقيان شباكهما في البحر. رجلان مقتدران، متينان، بأيد قوية. وسرعان ما علمتُ أن الكبير، الذي بدا أصغر مني، يدعى سِمْعَان؛ والآخر أخوه، أَنْدَرَاوُس. وأبصرتُ أيضاً أن سمعان سحب كثيراً من السمك ثم راح يُصلح خرقاً في شبكته بشرائط من الجلد وكثير من البراعة.

وفكّرت في نفسي أن ثمة حاجة لرجل يتقن إصلاح الشبك. رجل يصطاد السمك بإحدى مهاراته، وبأخرى يحول دون فقدانها. فقلت لهما دون احتراس وبصوت قوي على مدى رمية حجر صغير: «هَلُمَّ ورائي فأجعلكما صيَّادَي الناس». قلت ذلك بابتهاج عظيم، فقد تحققتُ أن بقاء المرء دون رفقة أربعين يوماً هو صومٌ أيضاً. وإذا ما كنت قد وقعت على رجال ونساء في الزفاف وفي مجمع الناصرة، فإنني لم أكن قد اخترتهم، لم يكونوا أصدقاء أو أناساً يمكن أن أعمل معهم.

لقد وجدت في هذين الصيّادَين رجلين صالحين، وراق لي كيف كانا يلقيان بشباكهما إلى البحر ومعها رقية صغيرة. ولأنني نجّار، أعرف الخشب ولا أعرف الماء، كنت أحسب أن للسمك أيضاً رقيته التي تحفظه وأن الصياد بحاجة إلى قوة الروح التي تخصّه كي يستطيع أن يسحب هذه المخلوقات إلى شبكته.

وبوفرة من الحماس قلت لهما: «أجل، هَلُمَّ ورائي فأجعلكما صيّادَي الناس». ومن عيونهما انطلقت مُوَافَقَةٌ وعَبَرَتْ هذا المدى المائي حتى وصلت

twitter @baghdad_library

إلى عينيّ. وشعرت أن الله قد مكّنني من أن أسلب **الشيطان** بعضاً من مهاراته.

والحقّ أنّني صرت قادراً على أن أستخدم طريقة **الشيطان** حين أتكلم. قادراً على أن أخاطب الغرباء بكياسة رفيعة وتهلل دافئ، وكأننا نتقاسم فيما بيننا أعجوبة فهم أشياء كثيرة لا تُقال.

وتذكرتُ أن **الشيطان** كان قد قال لي قبل أن يفارقني: «لأنني أقدرك كثيراً، أودّ أن ألمس يدك». ولما كنت متلهّفاً لذهابه، فقد مسست يدي اليمنى بيده، وأحسست للتوّ أنني تخليت عن نصيب من حماية الرب وحفظه. غير أنه لم يكن إلا نصيباً ضئيلاً. وكنت متيقناً أن الرب قد أعاد إليَّ معظمه.

وللوقت عاد سمعان وأندراوس بقاربهما إلى الشاطئ وملآ حقائبهما بصيدهما وجاءا معي إلى بيتٍ حيث تعرّفت على يعقوب، بن زَبَدي، ويوحنا أخيه، ورأيت في ذلك فألاً حسناً (فاسماهما كاسميّ أخويَّ). وكنت أعلم أنهما سيتركان أباهما، زبدي، وحيداً مع أُجَرائِهِ ويأتيان معنا، ما إنْ يدعوهما سمعان. وكان من الواجب أن أتأكد أنهما قد فعلا ذلك سعياً وراء الصلاة لا اللهو والتسلية. لكن سمعان كفلهما. وسمعان سيكون صخرتي. أجل. ولذا رحت منذئذٍ أدعوه سمعان بطرس، فبطرس باليونانية يعني الصخرة. وبطرس سيكون صخرتي في كلّ ساعة ما عدا واحدة.

وسرت إلى كفر ناحوم مع أتباعي الأربعة هؤلاء. وكنت إذ أنظر إليهم أشعر أن ما أكنّه لهم من احترام وإجلال يفوق ما لديَّ من ارتياب وشكّ. وفي مسيرنا، انتحى بي بطرس جانباً وقال: «منذ ليلتين كانت شباكنا مثقلة بالأسماك حتى إنَّ قاربنا راح يغرق. لكنني صلّيت ونجونا. وأريد أن أخبرك أنني رأيت وجهك بينما كنت أصلي».

وعندئذ خرّ بطرس على ركبتيه وصاح: «لا تأخذني معك، يا رب، لأني رجل خاطئ». غير أنّي أمسكت بيده وقلت له إنه إنسان صالح كما أقدّر. وإن وجوده معي في كفر ناحوم سيمنحني قوة. وعلى هذا مضينا نغذّ

السير إلى كفر ناحوم، إلى المجمع رأساً. وفي ذلك الصباح كرزت بحكمة يوحنا المعمدان.

كان السبت، وكانت هناك جموع كثيرة. وأدركت أنني إن كنت قد وجدت بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا في عملهم في السبت، فذلك لأنهم ما كانوا يقيمون وزناً للأيام التي حُرِّم فيها العمل. فالصيّاد لا يقيم وزناً إلا للوقت الذي تكون فيه المياه ملائمة. وأدركت أيضاً أنهم لم يتعلموا ما يكفي لأن يكرزوا معي. في هذا اليوم على الأقل. غير أن الفصاحة لم تنقصني، وكانت فصاحتي وحدي.

كلّمتهم عن قلب الله المنقبض المحزون. فمن بين جموع البشر الذين خلقهم، كان الرب قد اصطفى شعبه المختار، يهوده. وها هم، اليوم، بعضهم يؤمن، وأكثرهم لا يؤمن. وقد أعد الله جنّة لليهود الذين يثيبهم بالنعيم. أما من تركوا **الناموس** أو سعوا وراء الخطيئة أو امتلؤوا حماقة فلهم عذاب شديد. يهبطون هاويات وغياهب كثيرة، زنزانة تحت زنزانة، فالأدراج الحجرية النازلة من سجن أبي لا تنفكّ منحدرة إلى الأبد، درجة بعد درجة. ويعلم الآثمون، بعد فوات الأوان، أن قدرة يده يمكن أن تدمر مملكةً باليسر الذي يُسحق فيه فأر تحت الأقدام! كنت أتكلم بقوة رجل يلوّح بسيف.

قلت لهم: «توبوا، وستُغفر جميع خطاياكم». وبتكرار تعليم يوحنا المعمدان هذا، كنت أتكلم بسلطان. وعلا صوتي فوق رتابة ترنيم الفرّيسيين والكتبة. ففي مجمع كفر ناحوم، كما في غيره من المجامع، كان الفرّيسيون والكتبة يقرأون من اللفائف بترنيم واهن منتحب، وبتكاسل كأن حناجرهم، التي تبلّدت عبر سنين من التسويات المذلة، جمراتٌ مطفأةٌ. كانت أصواتهم هسهسةً. أما صوتي فكان ممتلئاً جهورياً.

قلت ـ ولم أكن أعلم أني سأتكلم بهذا القدر إلى أن دوّت كلماتي ـ: «تعالوا إلي، يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلّموا مني؛ لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة

twitter @baghdad_library

لنفوسكم». وقلت ـ وشعرت وأنا أقول ما أقوله أن قدرات جديدة قد وُهِبَتْ إليَّ أيضاً ـ: «لو سألتم: (يا رب، هل تُخْرِج الشياطين؟) فسوف يخرجهم».

وكان كقولي. كان كقولي تماماً. فقد خرج رجل من بين الجموع، ورأيت أنه قد أدخل الروع في قلوب الآخرين، إذ بدا مثل لص قاطع طريق، بأنفٍ مكسور، وندباتٍ كثيرة على وجهه. بهيمة عتيقة بروحٍ نجس حتى إنَّ نتانة جسده كانت تسبقه. وقد صرخ قائلاً: «مالنا ولك، يا يسوع الناصري؟ أتيت لتهلكنا؟».

ورأيت أن قسماته قد غَلُظَتْ بضربات تُكَالُ له من الاضطراب في داخله. ووقفت في مكاني وهو يقترب مني. وحدّقت في عينيه وقلت: «اخرس». فجمد في مكانه ولم يتحرك.

وأدركت أن روحاً نجساً ينبغي إخراجه من قلبه كما تُخرج بهيمة صغيرة من جُحْرِها، وأنه قد جاء إليَّ لكي أطرد هذا الشيطان. ولم تكن بي حاجة إلى حلقة ساحر أو أعشاب عطرية أضعها تحت منخريه. بنَفَسٍ واحد قلت ولم أزد: «اخرج، اخرج منه، يا شيطان!»

واندفع شيطانٌ خارجاً من حلقه، وصاح بصوت وحشيّ.

هذا الروح النجس لم يكن مرئياً. غير أن الجميع أحسّ بحضور غريب. مقاعد انقلبتْ، وريحٌ على الأرضية، وغبار. ثم خمدت كل هذه الفوضى.

وبُهتَ اليهود الصالحون في المجمع. فهم أناسٌ أتقياء، وأخشى ما يخشونَه أن يتقاسموا المكان مع هذه الأرواح النجسة. ولم تكن لديهم معرفة بكيفية مقاومتها. ولم تكن لديهم رغبة بالتعامل مع أناس مهيئين لمحاربة الشيطان. وقالوا: «ما هو هذا التعليم الجديد؟ من الذي يأمره؟ أهو نجس؟».

شعرت في تلك اللحظة وكأنني قذفت حجراً في وسط بحر الجليل وراحت الدوائر تتسع حتى وصلت كل شاطئ. ذلك أن خبري سيخرج في كلِّ الكُورَة المحيطة.

وقلت لمن كانوا في المجمع: «اسألوا».

«اسألوا، تُعطَوا.

«اطلبوا، تجدوا.

«اقرعوا، يُفتح لكم».

وخرجتُ من المجمع ومعي أصدقائي الجدد بطـرس سمعـان وأنـدراوس ويعقوب ويوحنا في طريق عودتنا إلى بيت سمعان بطرس.

twitter @baghdad_library

- 18 -

هكذا كنت زاخراً بقوّة جديدة حتى إني حين جئت إلى بيت بطرس ورأيت حماته مطروحة ومحمومة، لم أفعل سوى أن لمست يدها فتركتها الحمى، وقامت من فراشها مسرورة وطهت لنا طعاماً شهياً.

ولما صار المساء، جاء أصدقاء لسمعان وأندراوس ويعقوب ويوحنا إلى البيت وقدّموا إليَّ رجالاً ونساء يُظَنُّ أن لاشياطين قد تلبستهم. وشعرت أني مفعم بالسعادة والدهشة حيال مهارتي الجديدة في إحداث الشفاء السريع. كان يكفي أن أضع يدي على أحد هؤلاء حتى يخرج منه الكثير من الشياطين الصغيرة.

وفي الصباح، قال لي بطرس: «الشعب يطلبونك الآن، وأخشى أن يكونوا كثرة. وهاأنذا أقول لك. فهم فضوليون. يرغبون برؤية المعجزات ولكن ألا يمنحك ذلك سلطاناً لتغيير ما بأنفسهم؟».

كلامه جعلني أفكر بيوحنا المعمدان في سجن هيرودس أنتيباس. وشعرت بألم مثل سكين تمزّق صدري. فإذا ما كان الرب قد وهبني مواهب عظيمة، فإن ذلك يعني أن أكون عرضة لنقمة أولئك الذين يكرهون الرب. ولذا حثثت بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنا على التوجّه معي إلى مجمع آخر في الجليل فنُخْرج الشياطين هناك. فمن الأفضل أن نفعل فعلاً ونغادر تاركين الدهشة على وجوه الحشود بدلاً من أن نظلّ في دائرة واحدة إلى أن تصبح هذه الدهشة أنشوطة تحيط بأعناقنا. كنت أفكر الآن بحكمة بطرس.

في فناء مجمع آخر في بلدة أخرى، وإذا أبرص قد جاء إليّ وسألني: «أتقدر أن تطهّرني؟» ولما رآني صامتاً، قال: «إنْ لم أتطهر، لا يمكن أن أدخل المجمع. فإن لم أدخل المجمع، كيف لي أَن أتطهر؟».

ما كنت أعلم كيف أشفي أبرص. وما كان بمقدوري أيضاً أن أفرّ من أمامه فهمست للرب: «هَبْنِي هذه القدرة اليومَ».

وبينما كنت أنظر إلى الرجل، حريصاً ألاّ أحوّل عنه بصري، تذكرت أنه مكتوب في اللفائف أن الله كان قد قال لموسى: «اطرح عصاك إلى الأرض» فطرحها، فصارت حيّة. ولما تحركت، هرب موسى منها. لكن الرب قال له: «مُدَّ يدك وأَمْسِكْ بذنبها».

وأمسك موسى الحيّة، فعادت عصا في يده. ثم قال له الرب: «أدخل يدك في عُبِّكَ»، فأدخل يده في عبّه، وحين أخرجها، إذا يده برصاء كالثلج. فقال له الرب «رُدَّ يدك إلى عُبِّك»، فرد يده إلى عبه، ثم أخرجها من عبّه، وإذا هي قد عادت مثل جسده.

وعندئذٍ سمعت الرب وهو يقول لي: «افعل ما بوسعك»، فعلمت أن القدرة التي أعطاها لموسى قد صارت إليّ الآن.

وهكذا مددت يدي ولمست الأبرص على صدره وقلت: «اطهر»، ولم أَزِدْ على ذلك.

وللوقت طَهُرَ برصه. وكانت تلك معجزة عظيمة فقلت له: «انظر أن لا تقول لأحد».

غير أنه خرج وابتدأ ينادي ويذيع خبر شفائه، وأثار هياجاً شديداً فعلمتُ أن الوقت قد حان للعودة إلى البريّة قبل أن يأتي إليَّ البرص من كلّ ناحية. وما كنت بحاجة لأن يقول لي الرب إن هنالك عقبات كأداء تحول دون شفاء جميعهم، وفي وقت واحد.

لقد بدا لي، في الحقيقة، أن أمراض الإنسان قد رُتِّبَت كترتيب الملائكة. فشفاء المرض الأعلى، أي الأدنى في الحقيقة، يحتاج أن تطلب من **الروح القدس** أن ينزل في جهنم مسافة عشرة أضعاف زيادة. فإذا ما كنت قد

twitter @baghdad_library

ضعفتُ من شفاء أول أبرص، أيمكن لله أن يضعف أيضاً؟ فأنا لا أشفي، في النهاية، إلا بعون من **الروح القدس**. ومـا الـروح القـدس إن لم يكـن ذلـك الرباط بين **أبي** وبيني؟

وفررت إلى البريّة وقلت لأتباعي إنني سأوافيهم في كفر ناحوم.

ـ 19 ـ

طيلة ليلتين بقيت مستلقياً على الأرض مع العقارب والثعابين وفعلت ما بوسعي لئلاّ أخاف. فكنت أقول لنفسي إن يوحنا المعمدان كان يمسك بعقرب ويحدثه ولم يكن العقرب ليلدغه. غير أني لم أفلح تماماً. لم تلدغني العقارب، لكنني لم أفلح في أن أبدد الخوف. وعدت إلى كفر ناحوم.

وتبيّن لي أن عودتي إلى كفر ناحوم أفضل. فأول رجل كلّمته هناك كان قائد مئة وقف أمامي لابساً درعه، ونسرٌ على خوذته. كان هذا الروماني متكبّراً؛ ومن يعلم عدد من قتلهم بسيفه؟ غير أنه كان مهذّباً أيضاً، وقال لي: «يا سيّد، غلامي مريض مفلوج. وهو عزيز عندي».

وقلت له دون تلكؤ: «أنا آتي وأشفيه».

زيادةً في احترامي، أجاب قائد المئة إجابةً مدهشة: «يا سيّد، لستُ مستحقاً أن تدخل تحت سقفي. لكن قُل كلمة فقط، فيبرأ غلامي. لأني أنا أيضاً إنسان لي جند تحت يدي، أقول لهذا اذهب فيذهب، ولآخر ائتِ فيأتي. وغلامي المريض سيفعل ما ينبغي لو أعطيتني قدرة أن أقول له».

كانت عينا قائد المئة هذا مغرورقتين بالدموع. وتعجّبت لذلك، واستدرت إلى اتباعي وقلت: «أين أجد إيماناً بمقدار هذا؟ ليس في الجليل كله». وقلت لقائد المئة: «اذهب! فسيبرأ غلامك».

وكان كذلك. هكذا أُخْبِرْتُ. وبذا علمت أن بمقدوري، حين تكون الأمور حسنة، أن أرسل قدرة اللهَ إلى آخرين، ولو لم يكونوا يهوداً. وابتهجت لذلك، وسررت لهتاف أولئك الذين رحّبوا بي في الدروب. وتوقف كثيرون ليسلّموا علي، رجالٌ صبغوا شفاههم بصباغ أحمر. وقال لي سمعان بطرس

twitter @baghdad_library

إن كفر ناحوم، المدينة الصغيرة، مفضّلة لدى رجالٌ لا يعرفون النساء بل رجالاً آخرين. وعلمت أيضاً أن هؤلاء الرجال يصبغون شفاههم بعصير التوت الأحمر، ويتحدثون في الحانات عن أن الأسبارطيين هم أشجع أهل اليونان، ومحاربون أشداء، وديدنهم أن ينام واحدهم بين ذراعي الآخر.

وكان هذا سبب نقاش بين صيّاديَّ، وقال بطرس: «ديدن أهل إسبارطة السيف أيضاً. أما رجال كفر ناحوم هؤلاء فديدنهم الصباغ الذي تضعه النساء على شفاههن».

غير أني شعرت بعاطفة تجاه أتباعي الجدد هؤلاء. كانت أرواحهم رقيقة حنونة، وقد اجتمعوا تحت شجرة، إذْ لم يرحّب أحد بهم في المعبد. وكنت لطيفاً معهم.

تكلّمت في المجمع عن حَبْس يوحنا المعمدان. ولأنني كنت أشعر أنه معي، فقد كرزت بذلك الصفاء والوضوح الذي يأتي حين لا يكون على أية كلمة أن تفتش عن كلمة تليها. وكان مزيد من الناس يجتمع كل يوم في المجمع، حتى لم تعد المقاعد تتسع لهم، ولا الردهة أو ما حول الباب. وفي يوم جاء أربعة رجال يحملون رجلاً فقيراً مفلوجاً شُلّت جميع أطرافه، ولم يقدروا أن يقتربوا من الباب بسبب الجمع. ومن يأسهم، أخذوا سُلّماً وصعدوا على السطح ونقبوا السقف بين رافدتين ودلّوا المريض (مع فراشه) قدّامي حيث كنت أتكلم. وقلت في نفسي إن هذا الرجل لا بد أن يكون جديراً بهذه العناية التي يبديها حاملوه تجاهه. ودون تلكؤ قلت: «مغفورة لك خطاياك». فنهض من فراشه. وكنت أعلم السبب. فأولئك الذين أتوا إليَّ كانوا يعانون من عذاب شديد، ومهيئين لأن يدركوا ثقل خطيئتهم، ولذا كانوا مهيئين لأن يبرأوا. فعذاب هذا المفلوج صار مساوياً للشرّ الذي ارتكبه، ولذلك غفرت له، دون تردد.

كانت تلك إهانة للكتبة وتحدياً لهم. وسمعت أحدهم يقول: «لماذا يتكلّم يسوع بتجاديف؟ من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده؟».

لم أكن غافلاً أنني أتكلم دون تحفّظ، غير أن الصبر كان عسيراً. وازدادت ضراوة أولئك الأتقياء. رائحة ورعهم وطهارتهم كانت قريبة من رائحة المحار الميت على شاطئ البحر الذي لفظه بعد أن كان يُطعمه.

ولذا، فإنني حين سُئلت كيف أجرؤ على مغفرة الخطايا، قلت: «ولِمَ تسعون وراء سبب؟ لقد جيء بالرجل إليّ مفلوجاً، فجعلته يحمل فراشه ويخرج من المجمع؛ وإذا ما كان قد ترنّح، فقليلاً وحسب». وقد أهانهم ذلك كثيراً.

كل يوم يأتي كنت أدرك أكثر لماذا اختارني الرب. رأيت أن الخليقة قد بددت صبر أبي. وأننا استنفدنا إحسانه ومحبته بتكرار خطايانا. ولذا كان بحاجة إلى أحد بسيط مثلي كي يصغي إلى آثام البشر. وكما شعرت بفراغٍ في قلبي حين صُمْتُ، كذلك شعرت بتلك المواضع الخربة في قلوب الآخرين، حيث لا يمكن للمرء أن يحمل فكرة طيبة عن نفسه، ولو راح يتفكّر بأعماله الصالحة التي عملها. ويا للشفقة التي شعرت بها في تلك اللحظة نحو الخاطئين! وتضرّعت للرب ألا يكفّ أبداً عن وضع كلامه على لساني.

twitter @baghdad_library

ـ 20 ـ

بدأت أُدْرِكُ حاجتي إلى تلاميذ يتبعونني كلّ يوم ويقومون بأعمال لا أملك إلا قدرة ضئيلة على القيام بها. وحين رأيت لاوي جالساً عند مكان الجباية، قلت له: «اتبعني»، لأن وجهه كان حسناً جميلاً، وكنت بحاجة للضوء المنبعث من عينيه.

وقام لاوي وتبعني. ولم أبال كثيراً إذ كان عشّاراً يجبي الضرائب. لكنني سرعان ما علمت أن أحداً لَم يكن مكروهاً كأولئك العشّارين الذين يجبون الضرائب للرومان. غير أني كنت قد وضعت محكّاً للخاطئ؛ وجودُ وعدٍ بالنعيم في سيمائه. فالرجل الذي يحتال على الآخرين أو يعمل للرومان قد يُبدي من الله أكثر مما أجد لدى أولئك الأبرار المُسْدَلين.

ومن ثم، فقد كنت بحاجة إلى اثني عشر رجلاً، واحدٌ لكلّ سبط من أسباط إسرائيل، اثني عشر ينظرون في عينيّ فأعرف ما في قلوبهم.

غير أن واحداً من تلاميذي ما كنت قادراً أن أقول عنه هذا القول، هو يهوذا الإسخريوطي. كان وسيماً، بلحيته السوداء. ورغبت أن يَكون بين الإثني عشر مع أنني لم أستطع أن أعرف ما في قلبه. عيناه كانتا تتقدان بنارٍ ملتهبة. والحقّ، أن ألسنة اللهب الطالعة من روحه قد خطفت بصريَ، غير أني رحّبت به. قال إنه يحبّ الفقراء، وإنه عاش بين الأغنياء فترة طويلة تكفي لأن يحتقرهم. فأبوه كان غنياً. وقال يهوذا إنه عارفٌ بأكاذيب المقتدرين، وبكلّ فنونهم وألاعيبهم القذرة. ولذا فكّرت أن بمقدوره أن يعلمني الكثير، مع أنني كنت قد سألت نفسي ما إذا كان هذا الرجل

أعطيةً من **الشيطان** وضعها في طريقي. غير أني لم أتوقف كثيراً عند هذا الأمر. فقد كانت أمور أخرى تلحّ عليَّ أكثر.

لقد عشت بين هؤلاء الرجال الإثني عشر الذين تبعوني، وكنت آمل أن أعلّم بعضهم إخراج الشياطين، وأن أرسلهم حينئذٍ ليكرزوا. ومن أجل ذلك كان من الواجب أن يبقوا قريبين مني. كان بمقدوري أن أتّكل على سمعان بطرس، لكنني لم أكن متيقناً بعد من ابنيّ زبدي، يعقوب ويوحنا، ولا من أندراوس وفيلُبُّس وبَرْثُولَمَاوُس وتوما، وآخر يدعى يعقوب، وتدّاوس، وسمعان القانويّ ويهوذا الإسخريوطي، الذي تكلمت عنه. وكنت أعلم أن من غير الممكن تعليمه. إذ كان متفاخراً جداً. وأخيراً كان لاوي العشّار، والذي يدعى أيضاً متّى، ولكي لا نخلط بينه وبين متّى الذي كتب واحداً من الأناجيل، فإننا سنظلُّ ندعوه لاوي.

باختياري لهؤلاء التلاميذ أَثَرْتُ قدراً كبيراً من السخط بين الفرّيسيين. وبينما كنت آكل لحماً في بيت لاوي، جاء خُطاة كثيرون واتكأوا معنا، ومن بينهم عشّارون. وقد كانت قلوب هؤلاء منقبضة من عملهم للرومان، وكانوا يشعرون بالخجل أمام اليهود أمثالهم. ولذا كانوا بحاجة إليّ.

وما إنْ رآنا الكتبة والفرّيسيون نأكل معاً، حتى قالوا: «كيف يختلط بهذه الحَثالة؟» ولم أكن أرغب بزيادة العداء القائم أصلاً بين هؤلاء الفرّيسيين من كفر ناحوم وبيني، فقلت لهم: «لا يحتاج الأصحّاء إلى طبيب بل المرضى. لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة».

وفكّرت في أن أقول لهؤلاء الفرّيسيين أن الخطاة، الذين صادفوا **الروح الشرير**، قد يشعرون بمقتٍ تجاه شهواتهم القديمة، أما التقاة فلا يفكرون إلا بحماية أنفسهم من غوايات **الشيطان**، ولذا فهم فاسدون من الداخل.

ومن ثمّ، فقد كنت سعيداً بأن آكل مع خطاة. وبعض أصدقاء لاوي كانوا من العامّة (فلاوي كان مخلصاً لأصدقائه من الفقراء). وبمعرفة مثل هؤلاء الناس، رحت أفكّر بمدى كفر كثير من الأغنياء. فهم لا ينفقون ثرواتهم في إسعاد الآخرين، أما هنا، على مائدة لاوي، وبين هؤلاء الخطاة

twitter @baghdad_library

الفقراء، فقد رأيت مقدار الأذيّة التي يمكن للمرء أن يُنزلها بالآخرين، كما رأيت مقدار الرحمة والشفقة التي يمكن أن يشعر بها حيالهم. فوجوه أولئك الفقراء على مائدة لاوي كانت مكتسية بجلالٍ وكرامةٍ كسطح خشبة لم تُصقل متروكةً لدفء الشمس وغيظ المطر.

كنت أعلم أن مثل هذا الكلام لا يرضي الفرّيسيين. قالوا: «لماذا يصوم تلاميذ يوحنا المعمدان وأما تلاميذك فلا يصومون؟» وكانت أصواتهم شديدة الورع حتى إني أطلت التفكير في الليل بهؤلاء اليهود وما قالوه عن ديانتي وما فعلوه من طرد الخطاة.

وتكاثرتْ عليّ الأسئلة. لماذا سعيت في طلب رجال يأكلون ويشربون أكثر مما يصلّون؟ ألا يعلم أولئك الذين يتباهون بنبوّة إبراهيم أن ما هو مطلوب منهم يتعدى التردد على المجمع؟ وقلت لنفسي إنَّ مأدبةً مُعَدَّةً في السماء وسيُطرد منها الأتقياء. ولن يُدعى إلى الوليمة سوى الفقراء والخطاة. ومع هؤلاء كنت أشرب خمرتي وأعجب من كثرة ما أشرب. ففي عائلتنا، كانت الخمرة تُدَّخر لمناسبات جليلة. أما الآن فكنّا نشرب في كل وجبة.

وهؤلاء العشّارون نادراً ما اتسموا بالوقار. غير أني كنت مطمئناً للروح الطيبة فيما بيننا. والوقت لم يكن وقت صيام. وكان ثمة الكثير مما ينبغي إعداده للرب. والصيام يورث العبوس والكآبة، ويجعلنا مثل أولئك الذين يحمدون الله بأقوالهم ويخشون من الآخرين لأنهم عاجزون عن حمده بأفعال صريحة.

هكذا كنت أفكر وأنا أشرب الخمرة. لقد استطعت أن أخلّص خطاةً. لكن رأسي لفّه الدوار. فالوقت قصير، وعراقيل كثيرة مُتَوَقَّعَة. ماذا لو طلب وثنيٌّ العماد؟ أهو مستعد لأن يلقي بأصنامه؟ وهل تلقي به عائلته عندئذٍ؟

ولقد ساءت تلك الخلافات مع الفرّيسيين في كفر ناحوم حين ذهب عشّاريً في السبت بين الزُّروع وابتدؤوا يقطفون سنابل ويأكلون. قال الفرّيسيون: «إنهم يفعلون ما لا يحلّ فعله في السبت». وحين أجبتهم، كان

صوتي يسابق حذري، لكن كلماتي هي التي سبقت. قلت لهم: «السبت إنما جُعِل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت».

وفي السبت التالي، حين دخلت إلى المجمع، كان هناك عاملٌ يَدُهُ يابسة، فصار الفرّيسيون يراقبونني، مُثارين، هل أشفيه في السبت. ورأيت أنهم كانوا ينتظرون ليشتكوني، ولذا فكّرت ألا أكلم هذا العامل.

لكنه سرعان ما تكلم هو، ولم يترك لي مجالاً. قال: «كنت بنّاءً، لكن أصابعي تحطمت. أُناشدك، يا يسوع، أن تُعيد يدي كما كانت فلا أتسوّل قوت أهلي».

وما كان باستطاعتي أن أرفض. قلت له: «تعال».

وسألت الجمع: «أيحل فعل الخير في السبوت؟».

ولم يجب أحد. لم تكن لديهم شجاعة أن يقولوا: «اشفِهِ». أغاظتني قساوة قلوبهم (وما من قلب أشد قساوة من القلب الجبان). وقلت للرجل: «مُدَّ يدك»، وحين مدّها، لم يكن عليّ حتى أن ألمسها؛ فقد عادت في الحال صحيحة كالأخرى. غير أني شعرت أيضاً باضطراب. فقد خرج معظم الفريسيين غاضبين. وعلمت أن الوقت ربما يكون قد حان لأمضي إلى حرب مع البعض من شعبي.

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة، جاء فريسي من المجمع يعرف موظفاً عند هيرودس أنتيباس في كفر ناحوم وقال لبطرس أنّ هيرودس ينظر إن كان من اللازم إسكات يسوع الناصري هذا. وقررت أن من الأفضل أن أبحث عن مغارة على شاطئ بحر الجليل. فيسوع الناصري لم يكن ليبدو ابن الله لموظفي هيرودس، وإنما للفقراء اليهود وحسب.

twitter @baghdad_library

- 21 -

غير أني لم أكن وحدي. جاء التلاميذ معي، ومعهم جاء جمعٌ كثير. فقد انتشر الخبر في تلال الجليل ووهاده، بل وفي الجبال. ولم أكن أشعر أني مهيَّأ للكلام. واضطر التلاميذ أن يسلكوا مثلما يسلك الجنود وأن يحرسوني. كنت أشعر برغبة هذا الشعب في أن يلمسني، وتركت لهم أن يفعلوا ذلك إلى أن أصبحوا كثرة كثيرة وفقدت قدرتي على الإبراء. والحقّ أن أصابعهم كانت تتوسّل جسدي وتتركني في آخر النهار أعاني من رضوض وخدوش.

وقلت لتلاميذي أن يجدوا سفينة صغيرة يرسونها في خليج بحر الجليل. فأصعد على متنها وأكون قريباً من الشاطئ إنما منفرداً، وأكرز واقفاً عند قيدومها ولا أنزل البرّ إلا بعد فترة كافية فأضع يدي على قلّة.

وبينما كنت أنتظر السفينة، صعدت إلى جبل. وتبعني كثيرون. فنزلت من درب آخر وجئت إلى بلدة قريبة من كفر ناحوم ودخلت بيتاً رحّب أهله بي. غير أن جموعاً جديدة أحاطت بهذا البيت. وكان بينهم اثنان من الكتبة نزلا من أورشليم.

وسمعت واحداً من الاثنين يقول للآخر: «هذا لا يُخرج شياطين إلا بَبْعلَزَبُول، رئيس الشياطين». الخطر الذي كنت أتوقعه صار قريباً. وكلما كنت أزداد معرفة بالشفاء، كان بلاء الروح الفاسد يزداد انتشاراً. ولم يستطع الأبرار أن يروا في ما أقوم به سوى عمل **الشيطان**؛ إذ كيف لرجل متواضع مثلي أن يصنع معجزات؟ وقال كثيرون من قبل إنني أنكر **الوصايا العشر** والأحكام الكثيرة المستمدة منها، أما هم، الفريسيون الصالحون،

فيصلّون من أجل عالم كل من فيه ملتزم بالناموس. ولذا كان لا بدّ أن أكلّم هذين الرجلين من كتبة أورشليم. وحين نظرت في عيونهما، شعرت بأمل، فقد بدت تنضح بالحكمة.

قلت: «تشبّهانني ببعلزبول. لو كنت شيطاناً أُهْلِكَ الشياطين، أما كنت أَهْلَك أنا أيضاً؟ إن كان شيطان يقدر أن يُخْرِج شيطاناً، فهو مثل بيتٍ منقسمٍ على ذاته. ألا نعلم أن مملكة منقسمة على ذاتها لا تَثْبُتُ؟»

وحينئذٍ مضى هذان الرجلان من الكتبة بوجهين عابسين، إذ يمكن للتجهّم أن يكون أيضاً تعبير أولئك الذين لا ردّ لديهم.

كان ذلك اليوم يوم متاعب كثيرة. فإلى هذا البيت ذاته جاء رسولان من عند يوحنا المعمدان. وكان قد كلّمهما وهو في السجن، وأرسلهما إليّ بسؤال: «أنت هو الآتي، أم ننتظر آخر؟»

لم يطمئن تلاميذي لتلاميذ يوحنا. وقالوا: «المعمدان يغار منك».

وما كنت لأصدّق ذلك. فإن يكن يوحنا قد كفّ عن قوله إنني أنا هو الآتي بعده، فذلك لأنه قد سمع بمرافقتي الخطاة. ويا لذاك الشكّ الذي كان يفترس صدر يوحنا! فجدران السجن تجثم على الفكر، وتلوي اليقين. لعلّه لم يعد يعرفني. ألا يرى أن قدرتي على صنع المعجزات هي علامة على أن الرب لم يُسِئْهُ أن أتكئ إلى مائدة واحدة مع خطاة؟ ألا يرى أنني مازلت رسوله؟ وقلت لرسوليّ يوحنا: «العُرْجُ يمشون. البُرْصُ يُطَهَّرون. الشياطين تُخْرَج. والمصابون بفالج تتركهم الرعشة. وطوبى لمن لا يَعْثُرُ فيَّ». ثم صرفت هذين الرسولين. غير أني رحت أدافع عن يوحنا بين جماعتي. قلت لهم: «لم يَقُمْ بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان». ولم يفهم تلاميذي هذا القول كما ينبغي. لم يجدوا في كلماتي إلا إنقاصاً من قَدْرِ نفسي. ولم يكونوا قد تيقنوا بَعْدُ مَنْ أكون على الرغم من كلّ ما رأوه مني.

وإلى هذا البيت ذاته، جاءت حينئذ أمي ومعها أخواي، يعقوب ويوحنا. ووقفوا خارجاً، وراحوا ينادونني. وكان الجمع جالساً حولي فلم أسمعهم. وصاح رجل: «هوذا أمك وإخوتك يطلبونك». ولم أجِبْهُ. وسمعت

twitter @baghdad_library

أمي تجادل بعضاً من أتباعي. كانت تقول لهم إنني أُخْطِئُ إذْ أشفي في السبت ولا بد أنني ممتلئ شياطيناً. أما أخواي فكانا يقولان ما هو أسوأ من ذلك. كانا يقولان إنني مختلٌّ وإنهم قد جاءوا لكي يأخذوني إلى البيت. والحقّ أنني كنت أعلم أن أخويَّ هذين يغاران مني. وحين صرخ الرجل ثانية: «هوذا أمك وإخوتك يطلبونك»، قلت: «مَنْ أمي؟ ومَنْ إخوتي؟» ثم نظرت حولي إلى الجالسين في الحجرة وكأنني أخاطب كل واحد فيهم. وقلت: «ها إخوتي! من هم معي. لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأمي».

وسمعت بعد ذلك أن أمي بكت حين أُعيدَ ما قلته على مسامعها. وكم تمنيت لو أردّ تلك الكلمات. فأنا مدين لها بالكثير، ولو أن طرقنا معاً لم تكن ممهدة أبداً. لقد عاشت حياتها في خوف شديد. وحين كنت فتياً، زرعت فيَّ الخوف من الرومان. وكانت الكبرياء تنقصها حين تتكلم مع يهود أغنياء، وتشعر أنهم أرفع منها مقاماً. وكلّ هذا كان هو القوت الذي اغتذت منه نقمتي.

- 22 -

لما كان المساء، وكنت نادماً بسبب ما قلته عن أمي، شعرت برغبة في أن أذهب إلى البحر وقلت لتلاميذي: «لِنَجْتَزْ إلى العَبْر».

حينئذٍ، كانت الولائم تُقَامُ لتلاميذي في كل بيت يَرحِّب بنا. وقد رأوا بأمّ أعينهم ما أبداه معظم الأغنياء في البلدات المحيطة بكفر ناحوم من استعداد لاستقبالنا. فكانوا يأكلون جيداً ويشربون كثيراً دون هموم تعكّر صفوهم. أما أنا فكنت بحاجة للطمأنينة والسلام.

ففي تلك الأسابيع جاء إليّ كثير من المرضى، والمجانين؛ والمصابين بقروح في أوصالهم. وحاولت أن أشفي الجميع. وكانت اللمسة الواحدة تكفي لشفائهم كلما عَبَرَ **الروح القدس** من قلبي إلى يدي.

غير أن تلك الساعات لم تنقض دون أن أتذكر القفزة التي دعاني إليها **الشيطان** ولم أقفزها. وكنت لا أزالَ أشعر بأثر ذلك الجبن منطبعاً على جسدي، مع أن نعمة الشفاء كانت تمر من يدي إلى جسد من هو أمامي. فمن الجبانة أن يخشى المرء الموت كما خشيته. إلا أن تذكّري لهذا العار كان نوعاً من التعويض أو الترضية. أجل. فأنا ما كنت لأتفاخر بأعمالي الخيّرة التي أعملها. بل رحت أتفكّر في ذلك الوقت الذي قضيته مع **الشيطان**. فلعلي قد حوّلت إليه بعضاً من ولائي؟

مثل هذه المشاعر كانت تعاودني كلما وجدت أناساً لم أستطع شفاءهم. كنت أرى ظلمةً في أعينهم، ظلمةً تُظْهرهم مثل ملائكة **الشيطان**. وعلمت أنني بحاجة من جديد إلى البحر، أو إلى بحيرة واسعة مثل بحر الجليل، علّي أحرر أنفاسي من أفكار ثقيلة الوطأة مثل هذه.

twitter @baghdad_library

قلت لأتباعي المقرّبين أن يصرفوا الجموع. وفي المساء، بعد أن كان معظمهم قد انصرفوا، رحنا نغذّ الخطى صوب سفينتنا. غير أن البعض قد لحقوا بنا وصعدوا إلى سفن صغيرة سارت وراءنا. وحدث نَوْءُ ريحٍ عظيم. فكانت الأمواج تضرب السفينة وتجري مندفعة فوق مُقَدّمها. وحلّ الرعب في قلوب الجميع، أما أنا فما كنت أعلم شيئاً عن ذعرهم. كنت نائماً بسلام. سلامٌ جاءني من تأرجح السفينة واهتزازها. وأيقظني التلاميذ وقالوا: «قوارب كثيرة توشك أن تغرق، يا معلّم، أما يهمّك أننا نهلك؟».

فقمت وانتهرت الريح وقلت لها: «اسكتي». فصار هدوء عظيم. والحقّ أنني لا أعلم إن كانت تلك المعجزة من صنعي فحين استيقظت أحسست أن العاصفة قد أوشكت على نهايتها. ولكنني سُررتُ لقولي لهم: «ما بالكم خائفين هكذا؟ كيف لا إيمان لكم؟».

وسمعتهم يقول واحدهم للآخر: «أيّ إنسان هذا؟ فإن البحار أيضاً تطيعه».

وجئنا إلى عَبْرِ البحر إلى كورة الجَدْرَيّين، مدينة وثنية في أرض الأمم. ولم أكن مرتاحاً. فهذه ليست أرضنا ولا أرضٌ صديقة، وقد نزلنا تحت جروف عالية فيها قبور كثيرة.

ومن أحد هذه القبور نزل مارِد يحمل مشعلاً. وكان به روحٌ نَجِسٌ، حتى إنَّ نار المشعل كان تتأجج بقوة نَفَسِه. واندفع هذا المارد صوبي. وما من أحد من أتباعي، بمن فيهم بطرس، كان مستعداً لمواجهة هذا الرجل، فهو، كما رأى الجميع، ابن **النيفيليم**، الساقطين، كان أسلافه ملائكة أطلقوا شهواتهم خلف النساء وأنجبوا أبناء كبروا وصاروا مردة. وهؤلاء الرجال المردة، الوثنيون، كانوا يقترفون مذابح ويوقعون الاضطراب والفوضى حيثما حلّوا.

غير أني ما إنْ قلت له: «اهدأ»، حتى توقف.

ولما توقف، قال: «لا يقدر أحد أن يربطني. لا يقدر أحد أن يذللني».

«ممَّ أنت خائف إذاً؟»

«من كل شيء. إنني أعيش في ظلمة هذي القبور. أنتحب وأمزّق جسدي بالحجارة. لكني سمعت عنك. وعبدتك».

وسألته: «ماذا سمعت؟»

قال: «إنَّ في عينيك نوراً عظيماً، وإنَّ اسمك هو يسوع. هكذا سمعت من أولئك الذين تجرؤوا وكلّموني». ورأيت من ارتعاش شفتيه أنه مستعد لاستخدام قوته إنما باسم قوةٍ عمياء وحسب.

قال: «كثيرون هم الذين تكلموا بأخطاء عمَّن أكون. إن فيَّ من الشياطين ما ليس في أيٍّ أحد آخر. أستحلفك، يا يسوع، أن لا تعذبني! هاأنذا حذّرتك».

وخفت، فقوة هذا الرجل بمثل قوة ثور ضخم. ثم إنه كان قذراً. شعره طال إلى لحيته، وخصلاته كانت كالحبال السميكة التي تشدّ سفينة إلى مرساها.

قال: «إنني أعيش في قبور مَنْ حلّت عليهم اللعنة».

«ما اسمك؟».

وأجابني: «اسمي لَجِئون. لأننا كثيرون، وكل هذه الكثرة فيَّ».

كنت أعلم أنه ممتلئ شياطيناً. شياطين كثيرة، لعلّها أكثر بكثير مما أستطيع التغلب عليه. غير أن يد الرب كانت معي وشجعتني. قلت له: «الأرواح النجسة التي أطلقها الملك هيرودس هي فيك الآن. اتركي لجئون. اتركيه». رحت أهدر مثل وحش، ذاك الهدير الذي يهدره الإيسينيون كي يعززوا أمراً تلقّوه من الرب. وكما كنت أهدر، كذلك كان يفعل قطيع كبير من الخنازير البريّة التي اندفعت من حقل أسفل القبور. أما من حَلْق لجئون فقد انطلق سيل من الشياطين. ويا لذلك الصراخ والزعيق! وسمعتهم يقولون: «دعنا ندخل! دعنا ندخل في خنازير الجدريين». ولما كان الشيطان محتاج لأن يقيم في جسد، أَذِنْتُ لهم أن يدخلوا في القطيع، فاندفعوا بجلبة عظيمة في هذه الخنازير التي ما إن استقبلتهم حتى هرعت

twitter @baghdad_library

بكلّ قوة من على الجرف وارتمت في البحر. وكان عـدد هـذه البهـائم نحـو ألفين، فاختنقتْ في البحـر جميعـاً، كـلّ خنـازير الجدريـين. فحتـى هـذه البهائم الوضيعة لم تستطع أن تحتمل شناعة هؤلاء الغزاة.

وسرعان ما خرج الناس لينظروا الرجل الـذي تلبّسـته شـياطين كثـيرة. لكنهم وجدوا لَجئُون وقد استحمّ واكتسى وجلـس هادئـاً مسـتكيناً. غـير أن شيوخ كورة الجدَريين كانوا خائفين. وتوسلوا إليّ أن أترك تخومهم.

وفي طريق عودتـي إلى السـفينة، راح لجئـون يرجونـي أن أسمح لـه أن يكون معي. وقد أغرتني الفكرة. فسوف يصبح رسولاً عظيماً. غير أن العـدد كان قد بلغ الإثني عشر، ولا أقدر أن أضيـف واحـداً آخـر. ثـم إن لجئـون كان وثنياً. وقلت له: «اذهب إلى أهلك وأخبرهم بما جـرى». والحـقّ أنـني كنت أمقت الرجل وأشمئزّ منه. فاندفاعة أولئك الشياطين الذين خرجوا من حلقه كانت اندفاعة صاخبة مهتاجة على نحـو يتعـذّر فهمـه. ومـن الـذي يعرف سبب مثل هذا الشقاء أو يستطيع أن يكفله؟

ومضى لجئون، وابتدأ يقول عـني كلامـاً حسـناً في المدينـة الـتي ذهـب ليقيم فيها. وتعجّب الجميع لمديحه وكلماته المُطرية. فقبل ذلـك مـا كـانت لتصدر من فمه كلمة واحدة طيبة عن إنسان.

ـ 23 ـ

حينئذٍ عدت إلى كفر ناحوم، إذا واحدٌ من رؤساء المجمع (اسمه يَايرُس) جاء وخرَّ عند قدميّ. قبل ذلك ما من واحد من الفرّيسيين كان قد أعطاني أكثر من مكان لأعلّم فيه (وذلك على مضض). وها هو يايرس الآن. لقد رجاني كثيراً، قائلاً: «ابنتي الصغيرة على آخر نَسَمة. ليتك تأتي وتشفيها فتحيا».

وأدركتُ حينئذٍ وثاقة الصلة بين الإيمان وعدمه. فكلاهما ينسلاّن بصمت إلى القلب. وهكذا أدركت أن رؤساء المجمع قد ينبذونني، لكن ذلك لا يعني أنني فشلت في الدخول إلى قلوبهم. ومضيت إلى بيت يايرس وأنا أشعر بقوة كبيرة من جرّاء هذا اللقاء، وجاء معنا جمع كثير. وبينما كنّا نقطع الشارع، شعرت أن أحداً قد فعل بي شرّاً. وللوقت خَرَجَتْ مني كلّ قوة. فالتفتُّ وقلت: «من لمس ثوبي؟».

وأجابني رجل غريب: «أنت تنظر الجمع يزحمك وتقول: (من لمسني؟)» وعندئذ صاحت امرأة وخرّت أمامنا وقالت: «لديَّ نَزْفُ دَمٍ منذ اثنتي عشرة سنة. وقد أنفقت كل ما عندي للأطباء ولم أنتفع شيئاً بل صرت إلى حال أردأ. ولما سمعت بك، جئت ومسست ثوبك. لأنني قلت لعل ذلك يشفيني. وقد شفاني وجفف ينبوع دمي».

ورأيت في عينيها أنها قالت الحقّ. فكنت لطيفاً معها، وقلت لها: «يا ابنةُ، اذهبي بسلام وغداً تكونين صحيحة من دائك تماماً». وما إن ذهبتْ حتى جاء خادم من دار يايرس وقال له: «قد ماتت ابنتك».

twitter @baghdad_library

غير أن أبي كان معي في تلك الساعة، وكنت أشعر بقوتـه، فـالتفتّ إلى رئيس المجمع وقلت له: «لا تخف، يا يايرس، آمِنْ فقط». وكنت آمـل أن الصبية لم تمت بل ترقد مستريحة في ظلال النوم المديدة القريبة من المـوت. وحينئذ يمكن أن أنقذها. وما كنت أعلم إنْ كانت لديّ القدرة على أن أقيـم من ماتوا حقيقةً.

ورحت أتلو لنفسي كلمات أشعيا النبي: «استيقظوا، ترنّموا، يـا سكّان التراب».

وفي بيت يايرس كـان اضطـراب، وكثـيرون يبكـون ويولولـون. ودخلـت وقلت لهم: «لم تَمُتْ الصبية لكنها نائمة».

وقد قلت ذلك كي يهدأ الجو. فمن الأفضل أن يقوم الأموات في صمـت، أمّا الجلبة فلا تفعل إلا أن تسوقهم أبعـد. ولـذا أخرجـت الجميـع خارجـاً ودخلت مع يايرس وزوجتـه حيـث كـانت الفتـاة راقـدة. وأمسـكت بيدهـا وتَلَوتُ كلمات أتذكرها جيداً من لفافة **الملوك الثاني**، تقول: «ودخل أليشع البيت، وإذا بالصبيّ ميت. فصلّى إلى الرب، ثم اضطجع فوق الصبي ووضع فمه على فمه وعينيه على عينيه ويديـه علـى يديـه، وتمـدد عليـه فسـخن جسد الولد، وعطس سبع مرات ثم فتح عينيه».

وقلت لأبي الصبية وأمها: «إذْ قلنا ذلك، لا حاجـة لأن نفعلـه ثانيـةً». وكنت أعلم أنني إذا اضطجعت فـوق الفتـاة ولم تتحـرك، فسـتكون مَسَـاءَةً كبيرة جداً. وبقدرة الرب في يدي، لمستها وحسب وقلـت: «أيتهـا الصبيـة الصالحة، لكِ أقول قومي». وللوقت قامت الصبية ومشـت. وبُهـتَ أهلهـا، لكنني قلت لهم أن تُعطى لتأكل، وأن يُعطـى لهـا ذلـك بكـل الحَـبّ الـذي يكنانه لها. وقد قلت ذلك لأن الفتاة، نصف المستيقظة، بدت ممتلئة بؤسـاً إذْ عادت إلى الحياة. ولم أعلم ما إذا كـانت ميتـة حقـاً وقـامت. غـير أنـي فَهمت أن قَدْراً كبيراً من التعاسة بين الزوج والزوجة قد مدَّ غطاء نعش فوق الفتاة. ورأيت أنها كانت تقيم في بيت فيه الكثير من المشاعر النجسـةً. ولم يكن في تلك الحجرات أيّ نسيم عليل، بل كـان ذلـك الشـقاء التّفـه الـذي

يقتات منهما. وقبل أن أذهب، قلت ليايرس وزوجته أن يصوما، ويصلّيا، وأن يتركا زهرةً كل صباح في إناءٍ صغير قرب سرير الصبية.

لقد بدا الأمر بسيطاً حين قلتُ للفتاة أن تقوم، غير أن ثقلاً كان ينيخ على كاهلي. فالمرأة التي مسّت ثوبي نَزَحَتْ من أوصالي الكثير، وها هي الآن هذه الصبية التي لا تكاد ترغب في الحياة تستنزف منّي المزيد. هل اتّكلت كثيراً على مقدرات الرب؟ أكان من الحكمة أن أدّخر جهوده لشؤون أخرى؟ شعرت برغبة في أن أعود إلى الناصرة، وكنت أريد أن أعتذر لأمي عن تلك الساعة التي جرحتُ فيها حُبَّها.

twitter @baghdad_library

- 24 -

وهكذا رجعتُ إلى موطني، وتبعني التلاميذ، وقضيت في الناصرة يومين مع مريم. غير أني لم أعلم إنْ كنت قد أرضيتها، إذ كيف يمكن أن تسامحني بعد أن قلت: «مَنْ أمي؟».

ولما كان السبت، ابتدأت أعلم في المجمع. لكن الوقت لم يَطُلْ حتى تعالت أصوات السخط والاستياء. وراح الشعب يقولون: «ما هذه الحكمة؟» وحين أخبرتهم عن أعمالي، عن الأبرص والعاصفة، شعرت أني أفقد تواضعي (وكان ذلك مثل روحٍ كريهٍ في داخلي). والأنكى من ذلك أنهم لم يصدقوني. وبدا وكأن الخبر كان قد وصل إلى كلّ الأماكن ما عدا الناصرة. وسمعتهم يقولون: «أليس هذا هو النجّار، ابن مريم؟» ورحت أتساءل إنْ كانت أية لطمة تجرح الكبرياء أكثر من اضطرار المرء إلى تكريم رجل لم يكن أهمَّ منه هو نفسه حتى الساعة. وقد آلمني أنهم لم يظهروا تجاهي أي حبّ. فقلت لهم: «ليس نبيّ بلا كرامة إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته. ولا يستطيع طبيب أن يشفي أحداً يعرفه. والطبيب، بالطبع، ليس أفضل من مريضه». والحقّ أنني لم أَقْدِرْ أن أصنع في الناصرة ولا آية واحدة.

ولما كان السبت التالي، استيقظت ومعي قدرة أبي، وقدرت أن أشفي امرأة كانت سقيمة طوال ثمانية عشر عاماً. غير أن المساء لم يأتِ حتى وبّخني رئيس آخر في هذا المجمع الصغير لأنني أشفي في السبت. وكان هذا الرئيس رجلاً ثرياً، راضياً عن نفسه كل الرضا، وقال لي: «في ستة أيام يعمل الناس ويمكنهم أن يبرأوا فيها، ولكن ليس في السبت».

وأجبته: «أنت تحلّ ثورك من مربطه في السبت وتسوقه إلى الماء. لكنك لا تترك لهذه المرأة أن تُحَلَّ أغلالها في اليوم الذي نحتفل فيه بالأعمال التي عملها الرب».

غير أنه كان مستعداً تماماً للنقاش وقال: «بعضنا لا يحلّ ثيرانه في السبت. الإيمان درب ضيق». وقد أهانني بهذا. وكدت أقول له: «يا مُرَائي! أنت تسوق ثورك إلى الماء في السبت. ولا تتركه عطشاناً فينقص ثمنه». لكنني كنت متعقّلاً وقلت: «ما أضيق الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، ورحبٌ هو الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك».

وهزّ رأسه، ومثل من يوشك على حَسْمِ الجدال. قال: «الطريق الرحب للإيمان البسيط لا مخاطر فيه في الأيام الصافية. أما حين تمطر أو في الليل، فتتحول رحابة الطريق إلى مستنقع يتعذّر السير فيه. فابحث، يا يسوع، عن الدرب الضيق المرتفع بين الصخور. ولا تَسْعَ وراء الشفاء في السبت. فذلك هو الطريق الرحب».

وحينئذٍ وضع يده على كتفي بطريقة أبوية كما لو كنت قليل الإيمان. وفي تلك اللمسة من أصابعه كانت كلّ الثقة التي لدى رجل ثريّ. وقالت يده لجسدي: «احترم كلماتي. فهي تصدر عن مقام رفيع».

لقد هزمني. وقدرتي تركتني. ومن جديد، وفي مجمعي، كنت بلا حَيْلٍ أو قوة.

twitter @baghdad_library

ـ 25 ـ

ما إن تركتُ الناصرة حتى عادتْ بعض الأرواح الطيبة فيما يختصّ بكلّ ما يمكن أن نقوم به. والحق أنّ الوقت قد حان لكي أرسل رسلاً. ولم أستبعد أن يقدروا على القيام بأعمال كالتي أقوم بها. لقد وصل خبر قدرتي على الشفاء إلى مسامع كثيرين، ولعل الكثيرين قد صاروا مهيّئين للإيمان برسلي.

وقلت لتلاميذي أن ينطلقوا في رحلتهم دون أن يحملوا شيئاً سوى عصا؛ لا خبزاً، ولا نقوداً، إنما ثوب واحد فقط. قلت لهم: «أيّ بيت دخلتموه، أقيموا هناك حتى تخرجوا. وكل من لا يقبلكم، فاخرجوا للوقت من عنده. وانفضوا الغبار عن أرجلكم وبذا تقطعون طريقكم بيسر».

كنت أعلم أنني لن أستطيع أن أعطي لتلاميذي قسطاً مما أسبَغَهُ عليَّ الرب إلا إذا واظبت على أعمالي ولم أطلب لنفسي راحةً أو أشعر بالأسى تجاه ذاتي، فهلاك المرء يكمن في تلك الشفقة التي يدخرها لنفسه. وهو ما يصحّ ضعفين على **ابن الرب**. ويصح، إذاً ضعفين على أتباعه المقرّبين.

وكلّمتهم أيضاً بأشياء أخرى. والحقّ أنّه كان عليهم أن يتعلموا أشياء كثيرة. في وقتٍ قصير. ولذا كان كلامي قاسياً. وكنت أدرك أن توبة المرء عن خطاياه تولّد فيه اضطراباً؛ فتعدو النَّفْسُ جيئة وذهاباً. وتلك هي اللحظة التي قد لا تكون فيها الكلمة اللطيفة حكيمةٍ. فالذاهل المتحيّر لا يسمع مثل هذه الحكمة.

قلت لهم أيضاً ألا يقلقوا إذا صادفتهم أشياء لا يفهمونها. فهم يعرفون ما يكفي لتعليم آخرين. قلت لهم: «الذي تسمعونه هو حكمة الرب. نادوا

به على السطوح. لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النَّفْس لا يقدرون أن يقتلوها. بل خافوا بالحريّ من الله. فهو يقدر أن يُهْلِك النَّفس والجسد. وتذكّروا أن الله بكلّ شيء عليم. لا يسقط عصفور على الأرض بدون علم أبيكم. فلا تخافوا. أنتم أفضل من عصافير كثيرة».

ما قلته بعد ذلك لم يخرج بيسر على لساني. كان فيه كثيرٌ من التكبّر. غير أنها كانت الكلمات التي اختارها الرب، فتفوّهت بها: «من ينكرني، أنكره أنا أيضاً قُدَّام أبي». وتردد بعض الرسل. لم يكونوا مستعدين لأن يقولوا لكلّ من يلتقونه إنهم من جماعتي.

نظرت في عينيّ كلّ واحد من هؤلاء الاثني عشر وقلت: «ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً». وكان ذلك مختلفاً عن كل ما سبق لي أن قلته. فقد جئت لأجلب السلام على الأرض، غير أن الرب أراني حينئذٍ رؤى معارك كثيرة ستنشب جميعها قبل أن يحلّ السلام. وكان قلبي ممتلئاً ألماً لأنني لم أُقِم سلاماً مع مريم حين كنت في الناصرة آخر مرّة. ولذا لم تكن نقمة الرب وحدها تلك التي خرجت على لساني بل نقمتي أيضاً. فعائلتي كانت قد تركتني منقسماً. ولذا قلت: «أعداء الإنسان أهل بيته. من أحبّ أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني. من وجد حياته يُضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها».

وطفق رسلي يبكون. فما من فكرة تثير تعاطف المرء مع ذاته وإشفاقه على نفسه بالقدْر الذي يثيره إيمانه بأن يُضِيعَ حياته من أجل صديق؛ فهو يشعر في تلك اللحظة أنه شهم نبيل. وإنه لأمر طبيعي أن يندب المرء نفسه ويبكيها. ولذا حاولت أن أعلّمهم ما ينبغي أن يجدوه في شرائع الحبّ، لأن هذه الشرائع مخفيّة محتجبة. قلت لهم: «أحبب صديقك كنفسك. احرسه كما تحرس بؤبؤ عينك. ولا تبتهج إن لم تقدر أن تنظر إليه بالحبّ. واعلم أن ما من جرم أشقّ من أن تُحزِن روح أخيك».

وحينئذٍ تنهّدوا. فقد رأوا الحقّ في ما قلته، كما رأوا مقدار الصعوبة فيه. بهذه الكلمات أرسلتهم ليكرزوا.

twitter @baghdad_library

واخترت آنئذٍ أن أعيش وحيداً في كوخٍ تركــه الرعـاة، علـى تـلال كفـر ناحوم. وحاولت أن أخمد المخاوف التي كانت لا تزال تعتمل فيَّ.

كلّ واحد منها كان رهيباً. كل واحد كان يهبط عليَّ في منتصف الليــل. أطرافي كانت مثقلة مرهقة، ولم يَبْدُ لي من سبيل.

ـ 26 ـ

أول هذه المخاوف كان أسوأها. ولم يكن حلماً. فقد علمت أن يوحنا المعمدان مات مذبوحاً في سجنه، وأن هيرودس أنتيباس هو الذي أمر بذلك.

منذ أن سمعت بحبس يوحنا كنت مقتنعاً أن الله سيفكّ أسره. وها أنا أكتشف أن قناعاتي الراسخة قد تكون خاطئة، وأن حالي أشبه برجل زلّت قدمه على حافة جرف خطير.

وجاء ثاني هذه المخاوف بعد الأول. فكثير من الناس راحوا يقولون إن يوحنا قد قام من الموت. وإنه يقوم بأعمال عظيمة ومعجزات. وبعضهم كان مقتنعاً أن يوحنا ويسوع هما الشخص نفسه. والخطر واضح إذاً. فهيرودس أنتيباس الذي ذبح يوحنا المعمدان مرّة، قد لا يتردد في أن يقتله مرّة أخرى. والحقّ أن موت يوحنا كان نوعاً من البلاء أو الكارثة التي حرمتني النوم.

أما كيف مات يوحنا فقد علمته من خلال تلاميذي الذين سمعوا كثيراً من الأحاديث. ومن هذا الكثير أن هيرودس أنتيباس كان قد حبس يوحنا لأنه كان يقول: «لا يَحِلُّ أن تكون لك امرأة أخيك الميت». فهيروديا، امرأة فيليبُّس أخي هيرودس، تزوجت هذا الأخير بعد وفاة زوجها الأول. وإذ بلغ كلام يوحنا هذا مسامع هيروديا، المتزوجة حديثاً من هيرودس، راحت تسبّه وتشتمه ثم راحت تسبّ وتشتم هيرودس لأنه لم يعاقبه. وفي النهاية أمر الملك حرسه أن يمسكوا بيوحنا. فالملك ضعيف أمام النقمة المستقيمة لملكة لا تعرف الاستقامة.

twitter @baghdad_library

غير أن هيروديا لم تقدر أن تقنع هيرودس أنتيباس بتعيين يوم يقتل فيه يوحنا المعمدان. فالملك كان يخشى مثل هذا العمل، لأنه مَنْ يعلم القدرة التي وضعها الرب بين يديّ يوحنا؟

وفي يوم مولد هيرودس أنتيباس، صنع هذا الأخير عشاءً في القلعة. ودخلتْ سالومي، ابنة هيروديا والملك الميت، ورقصتْ أمام القادة ووجوه القوم. رقصتْ بحماسٍ وحرارةٍ حتى إن هيرودس أنتيباس كرّمها وأجلسها إلى جانبه وقال لها: «مهما أردت اطلبي مني فأعطيك». فقالت له سالومي إن كلامه لا وزن له، وإنه مجرد وعود تطْلَق في الهواء وفي الهواء وحسب.

وحينئذٍ أقسم لها هيرودس أنتيباس: «مهما طلبت مني لأعطينَّك، حتى نصف مملكتي».

وقَسَمُ الملك يزن الكثير، يزن حمل السفينة التي بناها لنفسه، ذلك أن قسم الملك يقوّيه ويعزز شأنه. والحنث بقسمه يجلب عليه لعنة أعماله الفاحشة وأعمال عبيده الدموية.

وحين أَعْلَمَتْ سالومي أمها بما وعدها به الملك، قالت لها هيروديا: «اطلبي رأس يوحنا المعمدان».

ولم يحنث هيرودس أنتيباس بقسمه. وللوقت أرسل في طلب السيّاف وأمره أن يأتي برأس المعمدان. وحين حُمِلَ إليه في غرفة الحفل أعطاه لسالومي. وقيل إنها وضعته على طبق من الفضة ورقصت به قدّام ضيوف هيرودس.

لم يعرف النوم إلى عينيّ سبيلاً في معظم الوقت. وحيداً في كهفي رحتُ أفتش عن عزاء وأفكّر أن الله قريب مني أمّا هيرودس أنتيباس فبعيد جداً في قصره.

وفي العتمة بكيت. فطريق يوحنا كان عسيراً. لم يشرب الخمرة يوماً، ومع ذلك قال كثيرون إنه شيطان؛ فما الذي سيقولونه عني إذاً؟ «سكّيرٌ نَهِمٌ. شيطان كبعلزبول». أما تلاميذي فسيلتقون كثيرين لن يصغوا إليهم.

ـ 27 ـ

وجاء اليوم الذي عادوا فيه. وكانوا حزانى بائسين وهم يحكون عن محاولاتهم في شفاء المرضى. وكثيراً ما طرحوا عليَّ السؤال: «لماذا لا نقدر أن نخرج شياطين؟ كل شيء ينبغي أن يكون ممكناً لمن يؤمن».

قلت لهم إن المرء حتى حين يصلّي لكي يكون إيمانه كاملاً، فإن جزءاً من ذاته يبقى دون إيمان. «لقد سألت رجلاً مرّة إن كان يؤمن. فأجابني: أؤمن، يا سيد، فأَعِنْ عدم إيماني». وقلت لهم: «إن هذه لحكمة!».

لم يبارح العبوس تلاميذي. لقد أخفقوا في شفاء المرضى.

وقررت من جديد أن أركب معهم سفينة تجوب بحر الجليل. وكان بمقدور لاوي أن يجد لنا القوارب كلما أردنا، فهو يعرف أصحاب سفن يتمنّون أن يطلب منهم خدمة ما دام يعدّ جباياتهم. هكذا سرعان ما قدرنا أن نفرّ من أتباعنا بضع ساعات. غير أن بعضهم رأونا ونحن نغادر وراحوا يحومون حول الشاطئ الفارغ. وحين رسونا وصعدنا إلى جبل لم يكفّوا عن اللحاق بنا.

كان الإرهاق الناجم عن الأرق قد نال مني عند أول انطلاقنا، أمّا حينئذٍ فشعرت بتعاطف وإشفاق وأحسست أني مهيَّأ لأن أعلّم وأكرز مرّة أخرى. وكيف لا؟ لقد وضعت يدي على كل خطأ ارتكبته. فجماعتي كانت مثل خراف دون راع. لقد أعطيتهم نوعاً من الأمل السريع أن يقدروا على شفاء الأمراض وما كانوا يحبّون أبي كما ينبغي. غير أني أنا أيضاً لم أكن أحبّه كما ينبغي، كما ينبغي تماماً. لم أكن أثق به بذلك الإيمان الكامل الذي طلبت من أتباعي أن يقدّموه. عليَّ إذاً أن أطرح بعيداً كل شك. وعلي أن

twitter @baghdad_library

أُقنع كلّ من يصغي إليَّ بحبّي **لأبي**. وهكذا رحت أعلّم معظم ذلك اليوم على الجبل، وفي داخلي إحساس يملأني بخسارة يوحنا المعمدان.

وعن عظتي هذه على الجبل، سوف يتحدّث بعد ذلك أولئك الذين أصبحوا كتبتي، ومن بينهم متّى على الأخصّ، في إنجيله. وسيجعلونني أقول أشياء كثيرة جداً، بعضها معاكس لبعضها الآخر. وسيضع متى معاً أقوالاً كثيرة جداً حتى إنه لا يدعني أتوقف عن الكلام ليوم وليلة، ومن فمين لا يسمع أحدهما ما يقوله الآخر. أما أنا فأستطيع أن أروي ما أعلمه وحسب. وما أعلمه هو أنني كنت أرغب في أن أجعلهم يعرفون الله كما أعرفه.

كنت قد بدأت أدرك جسامة المهمة. فأنا لا أستطيع حمل رسالة الرب وحدي. ذلك أن كثيرين سيقفون في وجهي. ولذا كنت بحاجة إلى جيش من الرّسل. فإذا ما تمكن كلّ واحد من هؤلاء الاثني عشر أن يجد اثني عشر آخرين، وتمكّن كل واحد من هؤلاء الرّسل الجدد أن يجد اثني عشر أيضاً، فسيكون لي مثل هذا الجيش. ولذا كنت أعلم أن عليّ أن أرسل رسلي مرّة أخرى، لكي يعودوا ومعهم رسلهم.

غير أن الجيوش الكبيرة تجلب الشقاق والنزاع. وإذا ما كان الإيمان أمراً بسيطاً بالنسبة للبعض، فإنه سرعان ما يصبح متاهة بالنسبة **لابن الإنسان**؛ وسرعان ما أتساءل عند كلّ منعطف إن كنت قريباً من النور أم أنني صرت أدنى إلى الظلمة. ولعل هذا هو السبب الذي جعلني أتكلم بكثير من الإقناع في ذلك اليوم وأكون ممتلئاً بالإعجاب بأعمال **أبي** (فإيماني كان لا يزال يبدو لي بسيطاً). والحقّ أنني كنت واثقاً حينئذٍ أن حبّه يمكن أن يغفر لكلّ من يأتي إليه. ولذا سعيت لأن أحوّلهم إلى حبّ الله بدلاً من الإعجاب بالشفاء الذي كنت أقدر عليه. وانطلقت كلماتي تتردد على الجبل.

«طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم **ملكوت السماء**. طوبى للرحماء، لأنهم يُرْحَمون. طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله».

وشعرت بالأمل لدى كل من كانوا يسمعون، وكنت أرى انبثاق هذا الأمل مثل بزوغ الفجر. ولذا كلّمتهم عن النور: «أنتم نور العالم. لا يمكن أن تُخْفَى مدينة موضوعة على جبل. ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت».

ولكي آتي بهم إلى حبّ أعظم، كنت أَعْلَمُ أن علي أن أستعمل أيضاً كلماتٍ قد لا يرغبون بسماعها، وأن لديهم إيماناً مضطرباً، مثل إيماني المضطرب. فالرغبة في الانتقام والثأر لم تكن في نِقيّ أنفسهم وحسب إنما في نِقيّ نفسي أيضاً، وإذا ما كانوا يحبّون الله بتلك الطريقة التي كنت أحبّه بها، فلا بد أنهم كانوا يؤمنون به كما كنت أؤمن في تلك اللحظة. ولذا قلت لهم ما لا يمكن أن يطيقوا.

قلت لهم: «من لطمك على خدك الأيمن، فحّول له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضاً». وشعرت بيأسهم وهم يحاولون فهم ما قلته، والإيمان به. فقلت لهم: «سمعتم أنه قيل تُحِبُّ قريبك وتُبْغِض عدوّك. وأمّا أنا فأقول لكم: أحبّوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء **أبيكم**. فإنه يُشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم، فأيّ أجر لكم؟ فكونوا أنتم كاملين كما أن **أباكم** الذي في السموات هو كامل». وكنتُ أعلم أنهم، مثلي، يرغبون رغبة عظيمة في أن يصدقوا ذلك ويؤمنوا به.

ولذا فقد سعيت لأن أشرح لهم أن كَرَم الرب عظيم: «لا تهتمّوا لحياتكم، بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم، بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام؟ والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء. إنها لا تزرع، ولا تحصد. **وأبوكم** السماوي يقوتها. تأمّلوا زنابق الحقل كيف تنمو. لا تتعب، ولا تغزل. ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها. فإنْ كان عشب الحقل يُلبسُهُ الله هكذا، أفليس بالحريّ جداً يُلْبِسُكُمْ؟ فلا تهتمّوا قائلين: ماذا نأكل؟ أو ماذا

twitter @baghdad_library

نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ لأن **أباكم** السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أولاً **ملكوت** الله وبِرَّه، وهذه كلها تُزاد لكم. فلا تهتموا للغد؛ لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفي اليوم شرّه».

وقلت لهم: «لنصلّي معاً»، وبينما كنت أسمع أصواتهم تعيد كلماتي، شعرت أنني بجبروت لوياثان يرتفع من الغمر.

ومعاً صلينا:

«أبانا الذي في السموات،
ليتقدس اسمك.
ليأت ملكوتك،
لتكن مشيئتك كما في السماء
كذلك على الأرض.
خبزنا كفافنا أعطنا اليوم،
واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضاً
للمذنبين إلينا.
ولا تُدخِلنا في تجربة
لكن نجِّنا من الشرير
لأن لك الملك والقوة والمجد
إلى الأبد.
آمين».

وقلت «آمين» مرّاتٍ عديدة ونحن ننزل الجبل.

وابتدأ النهار يميل. وتقدم تلاميذي وقالوا: «من الحكمة أن تصرف الجمع ليذهبوا إلى قراهم وضياعهم ويشتروا خبزاً، لأنه ليس لهم ما يأكلون وههنا موضعٌ خلاء».

غير أني لم أكن أفكر في أن أصرفهم. فهؤلاء الناس مشوا فوق الحصى الحادة كي يلحقوا بنا ويصغوا إليَّ وأنا أتكلم. وكنت لا أزال أشعر بيد الرب على مرفقي. قلت: «أعطوهم أنتم ليأكلوا».

فقالوا: «أنت من يجب أن يعطيهم. ألم تَقُلْ لنا: لا تهتمّوا قائلين: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟».

كنت قد قلت ذلك.

وسألتهم: «كم عندكم من الخبز؟»

ونظروا. ولم يكن هناك سوى خمسة أرغفة وسمكتين جافتين. فقلت للتلاميذ أن يأمروا الجموع بأن يتكئوا على الأرض فرقاً. وأخذت الأرغفة الخمسة وكسرتها حتى صار كل رغيف مئة قطعة. ثم قسمت السمكتين خمسمئة قطعة صغيرة. وأعطيت خمسمئة لقمة من الخبز وخمسمئة من السمك لكلّ واحد من الجمع، حتى أكل الخمسمئة جميعاً. وكنت أضع رقاقة من السمك ولقمة من الخبز على لسان كلّ واحد منهم. وحين تذوّق كلّ شخص هذه الكسرات، كنت مقتنعاً أن كل قطعة قد كبرت وتضخمت في فكره (كما كبرتُ مرة في قانا ولم آكل سوى عنقود واحد من العنب)، وأن قلة قليلة من بين هؤلاء الخمسمئة يمكن أن يقولوا إنهم لم ينالوا ما يكفي من السمك والخبز. وكان ذلك نصراً **للروح** لا ازدياداً في المادّة. ولم يكن بالنسبة للرب سوى عمل بسيط، فهو الذي خلق السموات والأرض من عدم، ولا ريب أنه يقدر أن يجعل أرغفتنا الخمسة خمسمئة.

ولقد بالغ فيما بعد كلٌّ من مرقس ومتى ولوقا بهذه القصة. فلم يظهر ساعتها أي ملاك في السماء، وكذلك لم يظهر المن الذي أعطاه الله لموسى. بل كانت قدرة بركة الرب هي التي أشبعت أتباعي. وشعرت كأنني عدت صبي نجّار من جديد وأنني ورفقتي في حقل أخضر (وليس على حجارة شاطئ مقفر). لقد أكلنا بكثير من الحبور. والحقّ أنها كانت وليمة. ولعل ذلك هو السبب في أن مرقس تكلّم عن خمسة آلاف إنسان أكلوا من الأرغفة وعن مئاتٍ من السمك واثنتي عشرة قفّة ملوءة طعاماً حملها تلاميذي إلى البيت. غير أننا لم نكن سوى خمسمئة، ولم نَعُدْ ومعنا شيء لأنفسنا.

المبالغة هي لغة **الشيطان**، وما من إنسان خال من **الشيطان**، حتى **ابن الله** نفسه (فما بالك بمرقس، ومتّى، ولوقا، ويوحنا). والحقّ أنني كنت

twitter @baghdad_library

أعلم أن كثيراً من أتباعي سوف يضاعفون الأعداد في هذا العمل. وكنت أشعر أن أبي يفضل أن تكون كلّ معجزة مكافئة للحاجة التي استدعتها فلا تزيد عنها. فكما تتواجد الفضلة والزيادة في كل أمر، كذلك في المعجزات، ولذا فإن من الأفضل أن يتجنب المرء الغلوّ والتبذير. وبذا كنت مقتنعاً أنني صرت أفهم أبي.

غير أنه لم يكن لي أن أفهمه. فمعجزاتي لم تكن جميعاً بهذا التواضع. وبعد ذلك بقليل، صعدت إلى السفينة مرّة أخرى مع تلاميذي، وجذّفنا صوب بيت صيدا، على ضفة بحر الجليل المقابلة.

وحين جئنا إلى الشاطئ، قلت لهم جميعاً أن يناموا على السفينة. وأردت أن أمشي على الساحل وحدي وأن أُشبع رغبتي في تأمّل أحداث ذلك اليوم الجميل.

ولما صار المساء، هبّت ريحٌ عظيمة. ومن موضعي المرتفع على الشاطئ رأيت السفينة تتقاذفها الأمواج. فنزلت إلى الماء من جديد ورحت أسبح متجهاً صوب القارب. وعلى حين غرّة، كنت واقفاً على الماء! ماشياً على البحر! وسمعت أبي وهو يضحك لسروري وأنا أمشي على مائه. ثم جاءت موجة أخرى من الضحك. وكان يسخر مني، من تسرّعي في القول إنّه لا يُفْرِطُ في معجزاته. كنت قد نسيت كيف داس ربنا، في سفر أيوب، على ظهر البحر. أما الآن، وبينما كنت أمشي على الماء (ولو بخطوات لطيفة)، فَرُحْتُ أفكر كيف تكلم أبي إلى أيوب من العاصفة وقال له: «هنا تُتْخَمُ كبرياء اللجج»، أجل، فقد انتهى «إلى ينابيع البحر» وتمشّى «في مقصورة الغَمْر». في فتوتي، قرأت هذه الكلمات مرّاتٍ كثيرة، وها هي الأمواج قد صارت سبيلاً تحت قدميّ وكان الرب مسروراً لدهشتي. صرت عارفاً بالمدى الحقّ لهيمنته. فقد كان قبل أن يولد الزمن وقبل أن تندفع المياه أو تتأسس الأرض. جلب بذرتي من الشرق ولمّني من الغرب وتحكّم بمياه الغمر. وكنت مسروراً بهذه الرؤيا، ولا أريد لسروري أن ينتهي. وعزمت أن أواصل المشي حتى أبلغ القارب حيث تركت تلاميذي. غير أني لم أفعل. وتوقفت لكي

أنظر إليهم. كانوا خائفين. فمن ذا الذي يمكن أن يمشي بقربهم؟ سمعتهم يصرخون. وقال أحدهم: «إنه خيال!» وقلت لهم: «تشجّعوا. أنا هو». أي أنني لست روحاً. وأضفت: «لا تخافوا».

وحينئذ قال بطرس: «يا سيد، إِنْ كُنْتَ أنت هو، فَمُرْني أن آتي إليك».

«تعال».

فنزل بطرس من السفينة. وحَسِبْنَا كلانا أنه هو أيضاً يمكن أن يمشي. غير أن الريح كانت شديدة هوجاء. وإِذْ ابتدأ يغرق، صرخ قائلاً: «يا رب، نجّني!»

ومددت يدي وأمسكت به وقلت: «لماذا شَكَكْتَ؟» ودخلت السفينة معه.

وعلمت حينئذٍ أن بطرس يريد أن يكون مخلصاً. كما علمت أيضاً أن وقتاً سيأتي يتخلّى فيه عني. فقد كان إيمانه في فمه، وليس في ساقيه. وعواطف البشر لا تنمُّ على وجود الرب أبداً. فهو لا يتجلى إلا في أفعالهم. أجل. **فالشيطان** الذي تعلّم من الرب فنون الكلام يمكن أن ينطق بعبارات رائعة متألقة تليق بالرب وتهزّ المشاعر، حتى لو لم يكن في تلك الكلمات أي شيء خيِّر يدوم.

حين عدت وبطرس إلى السفينة، سألني التلاميذ: «**أأنت ابن العليّ**؟»

كانوا قد طرحوا هذا السؤال مرّات كثيرة من قبل وفي كل مرّة كنت أسمع في أصواتهم شيئاً يقول لي إنهم مهيؤون لكي يؤمنوا. غير أني كنت أسمع أيضاً أنهم لم يؤمنوا بعد. كل يوم كانوا يقتربون أكثر، ولكنهم لم يصلوا تماماً، ليس بعد. وأدركت أنهم بقدر ما كانوا يرغبون في أن يكونوا مخلصين، قد يخذلونني أيضاً ويتخلّون عني. وأمام سروري العظيم في تلك الليلة ـ وكنت أشعر بسرور عظيم إذ اقتربت من **أبي** مثل هذا القرب ـ كانت قلوبهم قاسية. لأنهم لم يقاسموني الأعجوبة التي أدهشتني.

twitter @baghdad_library

- 28 -

بعد ليلتنا في البحر تلك، عبرنا وجئنا إلى أرض جَنِّيسَارَت وكانت الجموع بانتظارنا من جديد. وكلما دخلنا قرية، كان المصابون مستلقين في الشوارع ينتظرون زيارتنا.

عند منتصف النهار، نال الإرهاق مني؛ وعندما حلَّ المساء، الوهنُ والضعف؛ واصطبغ ثوبي بكلّ صنوف التوسّل والضراعة. وحين ذهبت إلى المجمع، كان ثمة فرّيسيون من أورشليم، ومعهم كتبة أيضاً. ولم يَطُلْ بهم الأمر حتى عبّروا عن رغبتهم في الكلام.

وتقدّموا وقالوا لي إنهم قد رأوا تلاميذي يأكلون خبزاً بأيدٍ نجسة لم يغسلوها. والحال أنّ العشّارين كانوا يجلسون في ساحات القرى يجمعون الجبايات للرومان ويلمسون النقود منذ الصباح الباكر حتى حلول المساء، ثم يقامرون في الليل بالنقود التي أفردوها لأنفسهم. فكيف يمكن ألا تكون أيديهم متسخة وقذرة؟ أمّا الفرّيسيون، حين يعودون إلى البيت من السوق، فلا يأكلون ما لم يغتسلوا.

غير أن المرء لا يقدر أن يفي الأتقياء مقتضياتهم. ومهما تحاول إرضاءهم بالتقيّد الصارم بالنواميس، لا يمكن أن يرضوا. ثم، كيف يمكن للمرء حقاً أن يطيع **الناموس** طاعة مطلقة؟ فالنواميس التي يُطْلَبُ التقيّد بها مكتوبة بأيدي بشر أكثر تقيً من المرء بكثير. **والناموس**، من اسمه، يعني أنه قد كان ثمة خرق له مرّةً. الأمر الذي قد يتكرر مرّةً أخرى. ولذا وقفت أمام هؤلاء الفرّيسيين في المجمع وكلمتهم مثل طبيب، قائلاً: «ليس ثمة شيء

من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن يُنَجِّسَهُ. لكن الأشياء الـتي تخـرج منه هي التي تُنَجِّس الإنسان. إنْ كان لأحد أذنان للسمع، فليسمع».

وسرتْ همهمةٌ خافتةٌ نافرةٌ بين أولئك الفرّيسيين. ففي داخل المجمـع، وقدّام المذبح، كنت أتكلم عن نجاسة الإنسان الطبيعية، الإنسان الذي لا بدّ أن يتلوّث ما دام حياً. وكانت كلماتي هذه ضرباً من الإهانة للمذبح.

غير أني كنت أكلم أتباعي أيضاً، فلم أتوقف عن الكلام بل قلـت: «مـا يدخـل مـن الخـارج لا يدخـل إلى القلـب بـل إلى الجـوف، ثـم يخـرج إلى الخلاء». وسمعوني وأنا أهمس لنفسي: «القذارة الـتي علـى يـد الإنسـان لا تَعْدِلُ شـيئاً». ثـم صحـت: «إن الـذي يخـرج مـن الإنسـان، ذلـك ينجّـس الإنسان. لأنه من الداخل، من قلوب الناس، تخرج الأفكار الشريرة، زنى، فسقٌ، قتلٌ، سرقةٌ، طمعٌ، خُبْثٌ، مكرٌ، تجديفٌ، كبرياءٌ، وعينٌ شريرةٌ».

وبلغت نقمتي حداً لم أستطع بعده أن أواصل الكلام. ونهض في داخلـي غضب شديد قطع نَفَسي. فهؤلاء الفرّيسيون يوبّخون غيرهم ممن لا يغتسلون وهم لا يعلمون مبلـغ شـرّهم. لا يخيفهـم سـوى الشـرّ القـادم مـن الخـارج! يخيفهم غبار الطريق ووحل الحقـول. ويـرون أن ذرّة مـن إهمـال **النـاموس** تكفي لأن يختلّ الميزان وترجح كفة الخارج. فالقذارة، بالنسـبة لهـم، هـي بحر الذنوب. أما حبّ الله الذي يُهَيّـئ المـرء لأن يضحّـي بكـل مـا لديـه، فأنّى لنا أن نجده لدى أي واحد منهم؟

وقمت من هناك وتركت المجمع. وقبل أن ينقضي الليـل شـفيت أصمّـاً أعقـد. ولم أفعـل سـوى أن وضعـت أصـابعي في أذنيـه، فَتَفَـلَ؛ ثـم لمسـت لسانه، وجعلته يرفع نظـره إلى السماء ويئـن. وقلـت: «افتـح». فـانفتحت أذناه، وانحلّ ربـاط لسـانه؛ وتكلـم، فابتسـمت. لأن الفرّيسـيين سـيقولون (بصوت مرتفع): «إنه لا يسلك بحسب النواميس في الغسل، لكنـه يجعـل الصمّ يسمعون والخُرْسَ يتكلمون».

وفي مناسبة أخرى، وبينما كنت متجهاً إلى قفر آخر من البريّة طلباً ليوم من الراحة، لحق بي جمع كثير، ومرّة أخرى لم يكن لهم ما يأكلون سـوى

twitter @baghdad_library

سبعة أرغفة من الخبز. فكسرتها وأعطيتها لتلاميذي الذين قدموها، صفاً بعد صف، ورتلاً بعد رتل، والجميع شبعوا.

غير أن تلك الساعات على الجبل حين ألقيت عِظَتي لم تعد قريبة مني. ففي ذلك اليوم لم أكلم جماعتي بكلام وضعه الرب على لساني، لا، بل عبّرت عن حبّي للرب، فكان الكلام كلامي. وها هي الحياة اليوم قد امتلأت ثانيةً بالمشاغل. ولعل هذا هو السبب الذي دفعني، كما أفترض، لأفكّر كثيراً بموسى. فقد كان عليه أن يصغي لبني إسرائيل وهم يندبون ويبكون في البرية، قائلين: «من يُطعِمُنا؟ قد تذكّرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر، والقِثّاء والبطيخ، والكُرّاث، والبصل والثوم. والآن قد يبست أنفسنا». ولم يُسَرّ أحدٌ من بني إسرائيل هؤلاء بالمنّ الذي أرسله الله. كانوا يطوفون ليلتقطوه ثم يطحنونه بالرّحى أو يدقّونه في الهاون ويطبخونه في القدور ويعملونه مَلات؛ لكن طعمه كان كطعم قطائف بزيت. كلّ واحد من بني إسرائيل كان يبكي في باب خيمته. وموسى نفسه ساء ذلك في عينيه ولم يكن مسروراً. فقال للرب: «لماذا وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليّ؟ ألعلّي حَبِلْتُ بجميع هذا الشعب أو لعلّي ولدته؟ هذا ثقيلٌ عليّ».

وتمنّى موسى على الرب الموت، لأن حياته كانت بائسة تعسة.

وقال له الرب: «سيأكل شعبك حتى يخرج هذا الطعام من مناخرهم ويصيرُ لهم كراهةً».

وفهمت حينئذٍ لماذا نال الضنى والإنهاك من موسى. فتعب الروح مثل لوي الأطراف؛ ألم جديد يضاف إلى القديم.

وفي يوم، على الطريق إلى بيت صيدا، قدّموا إليّ أعمى عند البوابة؛ فأخذت بيده وأخرجته إلى خارج القرية كي لا يشاهد أحد أني شفيته.

وحين تَفَلْتُ في عينيه ووضعت يدي غير المغسولتين عليه، سألته هل أَبْصَرَ شيئاً.

فتطلّع وقال: «أُبْصِرُ الناس كأشجار يمشون».

فقلت له: «ذلك لأن الناس، مثل الأشجار، يحملون ثمار الخير والشرّ».

ثم وضعت يديّ أيضاً على عينيه، فعاد صحيحاً وأبصر كلّ إنسان جليّاً. فأرسلته إلى بيته وقلت له لا تقل لأحد (وكنت أعلم أنه سيقول)، غير أني لم أكن متيقناً حتّام يمكنني أن أمضي في أعمال الشفاء هذه دون أن أُضني نفسي وأنهكها. وكنت على وشك الاقتناع بأن الله ربما يعاني من إرهاق وتعب كي يؤازرني ويعضدني، وإن كنت لم أجرؤ على الإفضاء بهذه الفكرة حتى لنفسي.

وكان ثمة ليال أَفَقْتُ فيها ولم أعرف من أكون. وفي مرّة، حين جئت إلى نواحي قيصرية فيلُبُّس، سألت تلاميذي: «من يقول الناس إني أنا؟».

فقال بعضهم إنه يقال إنني يوحنا المعمدان. وآخرون إيليا، وآخرون قالوا: «إنهم لا يعلمون، غير أنهم يعتقدون أنك واحد من الأنبياء».

وقلت لهم، وقلبي يخفق بقوة: «وأنتم من تقولون إني أنا؟»

وسأل بطرس بلطف، ولعلّه كان يفكر كيف مشيت على الماء: «أيمكن القول إنك المسيح؟».

ولأنني كنت أشعر كما يشعر رجل عادي من النواحي جميعاً سوى واحدة، فإنني كنت أحبّ بطرس لما أعطاه لي إيمانه من قوّة. وعلمت آنئذٍ بمزيدٍ من اليقين أنني لا بد أن أكون **ابن الله**. ولكن من أين لي أن أتيقّن من ذلك تماماً إنْ لم يستطع أيّ إنسان أن يعرفني؟

twitter @baghdad_library

ـ 29 ـ

وكان لي أن أدرك أن لا بدَّ للمرء من دخول الظلمة التي تحيا تحت كل بهاء تطلقه الروح. ورغبت أن أفاتح رسلي بهذه الحقيقة. أخبرتهم بحلمٍ كانَ يزورني في كلِّ ليلة على مدى سبع ليال؛ حلمٌ أن **ابن الإنسان** يذهب إلى أورشليم ويُنكره رئيس الكهنة ويُصلب.

وما إن سمع التلاميذ ذلك حتى قالوا: «لا، بل تعيش إلى الأبد. ونعيش معك».

وحينئذٍ علمت لماذا تقبع الظلمة بقرب العلاء والرفعة. فحبّهم لي هو من أجل قدرتي على صنع المعجزات، وليس لأني أعلّمهم محبّة الآخرين. وهم يرغبون بأن يكرزوا مثلي، إنّما لكي يزيدوا من قدرتهم، لا لكي يكرزوا بالحبّ. ولذا وبّختهم قائلا: «لا تهتمون بما لله لكن بما للناس». وفي غمرة الصمت الذي تلا هذه الكلمات، عاودني الحلم أيضاً.

قلت لهم: «إذا قُتِلْتُ، في اليوم الثالث أقوم»، ولم أكن أعلم إن كنت أقول الحقّ.

ونظرت في أعينهم لأبصر إنْ كانت أنفسهم مفتوحة. ففي مثل هذه اللحظة، إمّا أن تكون معجزة الإيمان حاضرة أو لا تكون. غير أني لم أرَ في أعينهم سوى ثقل الروح. ذلك الثقل الذي ينمُّ على عناية المرء بنفسه واهتمامه بذاته. لقد أردت أن أدفعهم صوب الإيمان، ولكني تحققت حينئذ أنني أنا أيضاً لم أكن أسلك بحسب الحب تجاه الآخرين وإنما بحسب بحثي عن القدرة على إقناعهم. وأطلقت تنهيدةً لِمَا رأيت من تعقيد القلب.

وتنهّدوا في أثري، وكأننا جميعاً نعلم كم اقتربنا من الحقيقة وكم لا نزال بعيدين عنها في الوقت ذاته.

وبعد أيام قليلة، أردت أن أتقرّب من بطرس ويعقوب ويوحنا. ألم أبدأ كهنوتي بهم؟ واخترت أن آخذهم إلى جبل عال، وكنّا هناك منفردين. غير أن سحابةً ظللتنا. وكنت أعلم أن سحابة مثل هذه قد ظللت موسى حين نصب مظلته على جبل سيناء، وأن السحابة قد نزلت وغطت المذبح.

في ذلك الوقت، كان بنو إسرائيل في البريّة أربعين سنة. وفي كلّ مكان كانت تحلّ عليه السحابة، كانوا ينصبون خيامهم. وإن لم ترتفع السحابة لا يرتحلون إلى يوم ارتفاعها.

وها نحن هنا، تحت سحابة أخرى، وقال بطرس: «يا رب، فلنصنع هنا ثلاث مظالّ. لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة».

وللوقت، صنع المظال. ولم تتحرك السحابة فوقنا، وكانت السماء بلا شمس. غير أن ثيابي كانت تشعّ وتسطع. وبدت متألقةً كالنور الذي لا بد أن يكتنف أنفس المنصفين. ثم رأيت إيليا. كان واقفاً بجانبي. وكان موسى بقربه.

وقلت لرسلي الثلاثة: «ماذا ترون؟»

فأجاب بطرس: «لا أرى شيئاً؛ من يرى الله موتاً يموت».

وفي تلك اللحظة ارتفع لهب من المظلة الأولى، وقال بطرس: «أنت **المسيح**».

وهززت رأسي. حتى في تلك اللحظة، لم أكن متيقناً. ومن جديد أخبرت بطرس بحلمي. قلت له إنني ينبغي أن أذهب إلى أورشليم، وهناك أموت. ولكن أنّى لأورشليم أن تُنزِل الموت **بابن الرب**؟

قال بطرس: «حاشاك، يا رب». فهو لم يصدق حلمي. وفكّرت في نفسي. إن كان **الشيطان** قادراً أن يتنكّر بهيئة ملاك من نور، أفلا يقدر أن يأتي أمامي بهيئة بطرس؟ ولذا قلت له: «اذهب عني، يا **شيطان**»

twitter @baghdad_library

واغرورقت عيناه بالدموع. وعلمت آنئذٍ أنني لا أزال أشعر برغبة كبيرة في التقرّب من هؤلاء الرّسل. وأوّلهم جميعاً بطرس. وأردت أن يعلم بطرس أيّ جمال كان في نفسه. وبينما أنا أفكر في ذلك، ارتفعت قدرة الرب فيَّ وقلّ هول الحلم.

غير أني لم أقدر أن أستبقي قدرة الرب طويلاً. وفيما نحن نازلون من الجبل، تجادل بطرس ويعقوب ويوحنا فيمن هو أعظم بينهم. ولعلّهم صدّقوا حلمي أخيراً فراحوا يتفكّرون فيمن يمكن أن يأخذ مكاني. ولُذْتُ بالصمت إلى أن رجعنا إلى كفر ناحوم. وهناك جمعت الاثني عشر وقلت لهم: «إذا أراد أحد منكم أن يكون أولاً، فيكون آخر الكلّ».

وفي تلك اللحظة، وكما لو أنني طلبت مثلاً جميلاً لأوضح به مثل هذا الفرق، جاء شاب إلينا وجثا عند قدمي وسألني: «أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل؟ كيف لي أن أَرِث الحياة الأبدية؟ لقد حفظت الوصايا منذ حداثتي».

ورأيت في عينيه رغبةً في أن يرضيني، فقلت له (وكان ذلك موجَّهاً أيضاً إلى رسلي): «بِعْ كلّ مالك، وأعطِ الفقراء. فيكون لك كنزٌ في السماء».

غير أن الشاب اغتمّ من القول؛ واعترف أنه ذو أموال كثيرة يعاف أن يفقدها. فقلت: «هوذا كثير من أبناء إبراهيم وبناته يعيشون في قذارة ويُحْتَضَرون من الجوع. وبيتك ملآن. فما مقدار ما يذهب إليهم؟»

ومضى الشاب.

وقلت لتلاميذي: «ما أعسر أن يدخل غنيّ إلى ملكوت السموات!» فراح بعض من جماعتي يتهامسون بغمّ. فقلت: «يا بنيَّ، إنه لشاقّ أن تثق بالأغنياء. وستعلمون أن مرور عقدة من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنيٍ إلى **ملكوت السماء**». فلما سمعوا ذلك بُهتوا، وقالوا بعضهم لبعض: «إذاً، من يستطيع أن يَخْلُصَ؟» ودمدم واحدٌ منهم، كان وجهه محتجباً خلف وجوه الآخرين: «يُغني الله من يثق بهم. وإلا فَلِمَ الإجلال الكبير للثروة؟» وقال آخر: «إن كان الغني لا يَخْلُص، فَمَنْ إذاً؟».

فقلت: «لا يَخْلُص إنسانٌ يعدّ نقوده». وحينئـذٍ ذكّرنـي بطـرس قـائلاً: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك».

وكان عليّ حينئذٍ أن أعترف لنفسي بأن تلاميذي ليسوا إلا بشـراً، لهـم أهواؤهم الصغيرة، وما كانوا بأفضل أو بأسوأ من بقية البشر. أمـا المجادلـة التي دارت بين رسلي هؤلاء عمّن يكون الأول فقد تركتني أتميّز غيظاً. قلت لهم: «اغفروا لنا ديوننا كما غفرنا للـذي اسـتدان منـا». لكنهـم لم يسـمعوا السخرية في صوتي.

بل راقَ لهم هذا القول. أيمكنني القول إني اكتشفت الهوى الأعظم لدى رجالي؟ أهو أنْ تُغفَر لهم ديونهـم؟ كـان مـن الواضـح أنهـم لـن يغفـروا لمـن استدان منهم.

لقد تطلّعت إلى جيش مـن رجـال أنفسـهم نقيّـة طـاهرة فـلا يحتـاجون سيوفاً. وها أنا قد جمعتُ من حولي قلّة من الأتباع راح بعضهم يجادل بعضاً من يجلس عن يميني ومن يكون أولاً حين أمضـي. معجـزات كثـيرة جـداً، وهذا المكسب القليل.

كنت أعرف كلّ واحد من تلاميذي ما إنْ أنظر في عينيه، غير أن عينيّ كـل منهـم قـد تغـيّرت في تلـك السـاعة، وراح السـخط يلحـس أطـراف إخلاصهـم. أكـانت نقمـة أبـي نتيجـة لمعرفتـه أن شـعبه المختـار يُخلـص للشيطان أكثر مما يخلص له؟

في حلمي تلك الليلة، سمعت ملاكاً يقول: «لأنه هكذا أحـبَّ الله العـالم حتى بذل ابنه الوحيد. كلّ من يؤمن به تكون له الحيـاة الأبديـة. لأنـه لم يرسل الله ابنه لِيَدين العالم بل ليخلّصه».

كم تمنيت لو أن الملاك يتكلم بالحقّ! فعندها أكون مثل نـور مُرْسَـل إلى العالم. غير أن الناس أحبّوا الظلمة أكـثر مـن النـور. واسـتيقظت، حينئـذٍ، مضطرباً مشوَّشاً. فأنا لم أعلم إن كنت هنا لأخلّص العالم أم ليدينني العالم. وكل ليلة كنت أسمع أمراً في نومي، لكن الصوت كان صوتي؛ وكان يأمرني بأن أترك هذه الأرض حيث ينتظر الناس أن يلمسوا طرف ثوبي وأذهب إلى

twitter @baghdad_library

جبابرة أورشليم ومتكّبريها، وأدخل باحـات الهيكـل، ولـو صـارت أيـامي معدودة بعد ذلك على أصابع اليد الواحدة.

وتذكرت كيف أراد الملك هيرودس أن يقتلني. يا لهذا المخلـوق الدمـويّ الذي هو الإنسان. نقمة أعدائي كانت كحرّ النار المستعرة في الجحيم.

وأدركت أن عليّ أن أقود أتباعي إلى الهيكل بأيّة طريقة، وأن أتألم ممـا ينتظرني هناك. وأنّ عليّ أن أقوم بذلك للوقت، ولو لم يكـن أيّ وقـت مـن السنة أقل يُمْنَاً من هذا الوقت. فـالفصح قريـب. وسـيأتي اليهـود مـن كـل أرجاء اليهودية والجليل إلى أورشليم. وأحـدٌ منـا، نحـن اليهـود، مـا كـان لينسى أنّ هذا العيد هو ذكرى فرارنا مـن مصـر. وأننـا قـد تُهنـا بعـد ذلـك أربعين عاماً في البريّة قبل أن نجد الأرض الجديدة. وحين بلغنا في النهايـة تلك الأرض، هناك نجحنا وازدهرنا. ثم أضعناها بعد ذلـك بخطايانـا. وهـا هم الرومان يحكمـون علينـا. وفي سـنوات كثـيرة، في الفصح، كـان اليهـود يقومون ضد الرومان ويثيرون أعمال شغب كبيرة. ولهـذا فـإن مـا مـن وقـت أخطر من هذا الوقت كي أدخل أورشليم. فذكرى مجدنـا الضـائع لم تفـارق أحداً منّا.

ـ 30 ـ

وطّدت العزم على أن أبدأ الرحلة، غير أني اضطررت أن أبقى منتظراً في الجليل. فتلاميذي الاثني عشر ما كان بمقدورهم يوماً أن يتفقوا على ساعة الانطلاق. وفي ذلك الصباح الذي أوشكنا فيه على الذهاب، كان ثمة تأخير جديد. فقد اختفى لاوي. وكنا نعلم أنه يشرب الخمرة بصحبة رجال ونساء لم يرغبوا بالانضمام إلينا. واغتاظ بقية رسلي، وقالوا: «نحن أحد عشر منّ أصل اثني عشر. فلنمض».

فقلت لهم: «إن كان لإنسان مئة خروف وضلّ واحد منها، ألا يذهب إلى الجبال يطلب الضالّ؟ وإنْ اتفق أن يجده، فإنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين».

وقال بطرس: «يا رب، حين كنتُ صبياً، كنتُ مع عمي، وكان راعياً وأنا أيضاً مثله. وما كنّا لنتعقّب الخراف الضالّة، بل نحرس الصالحة منها».

فقلت له: «لا، **ابن الإنسان** قد جاء لكي يخلّص ما قد هَلَكَ». وسمعت الله يتنهّد. فبنوا إسرائيل كانوا خرافه طوال ألف سنة. وها إنّ كثيراً منهم قد ضلّوا. وانتظرت لاوي.

وفي ذلك المساء حين عاد، كان لاوي ذاهلاً. إن رجلاً يشرب طيلة اليوم ربما يشعر أنه قريب من غضب الآخرين، ولذا يشرب إذْ يمكن لذلك أن يكون تُرسه. أكان لاوي قريباً إلى النقمة التي تنتظرنا في أورشليم؟

كرزت تلك الليلة لوقت طويل، وربما كان ذلك كي أسكّن قلقي واضطرابي. والحقّ أنني لم أكفّ عن الكلام مع أنني رأيت الضياء يترك

twitter @baghdad_library

أعين الرُّسل. فقد سمعوا هذا الكلام من قبل. غير أن وجوهاً جديدة كانت بيننا، ورحت أعلّمهم بأمثال. وكنت قد تعلمت أن في جميعنا قدراً كبيراً من كبرياء الرب، الذي خلقنا. وأن المرء يتعلم على نحو أفضل حين لا يكون عليه نير المعلّم. فالأحسن أن يشعر أنَّ روح الرب تملأه بقدرته هو على أن يفكّ اللغز.

ولذا، ضربت لهم هذا المثل: «يشبه **ملكوت السماء** إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله؛ وفيما الناس نيام، جاء عدوّه وزرع زواناً في وسط الحنطة ومضى، فلما طلع النبات وصنع ثمراً حينئذ ظهر الزّوان أيضاً». وعندئذ صاح أحد سامعيَّ: «أليس على عبيد ربِّ البيت أن يقلعوا الزوان؟»

فأجبته: «كلا، لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان. دعوهما ينموان كلاهما إلى الحصاد. وفي وقت الحصاد اجمعوا الزوان واحزموه حزماً ليُحرق. أمّا الحنطة فاجمعوها إلى البيت».

وسألت نفسي: كيف يمكن لملائكة الرب أن تفصل الخير عن الشر؟ لقد رأيت في تنقّلي مكر البشر. والكهنة أيضاً هم أبعد مكراً. فماذا لو كان أمام باب السماء هيكل لا يختلف عن مكان الجباية؟ فَمِنْ بواباتٍ كهذه يمكن أن يتسلل أشرار كثيرون.

ومرّةً بعد مرّة، تعلّمت أن بني جلدتي لا يهمهم إن كانوا طوالاً أم قصاراً، نحيلين أم سِماناً، بقسماتٍ نبيلة أم كريهة، أقوياء أم ضعفاء، فذلك كلّه سواء ما دام الطمع هو الذي يقودهم.

ولذا حين قال لي بطرس: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك؛ فماذا يكون لنا؟» أجبته بمثل آخر، وكان من أجل بطرس.

استأجر رجل فَعَلةً واتفق معهم على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه. ثم خرج نحو الساعة الثالثة واستأجر آخرين وأرسلهم، ثم في الساعة السادسة والتاسعة.

فلما كان المساء قال لوكيله: «ادع الفعلة وأعطهم الأجرة». وكلّ واحد أخذ ديناراً، من جاء في أول ساعة ومن جاء في التاسعة. ولأن الأوّلين ظنّوا

أن الآخِرين يأخذون أقلّ، تذمروا. غير أن ربّ البيت قال لهم: «أما اتفقتم معي على دينار؟ خذوا الذي لكم واذهبوا. فإني أريد أن أعطي هؤلاء الآخرين مثلكم. هكذا يكون الآخرون أوّلين والأوّلون آخِرين».

رفعت صوتي ورحت أتكلم بقوة حتى إنَّ الرب همس لي: «كفى! إنّ في قولك بذرة سخط. حين لا أكون معك، يكون **الشيطان** رفيقك». وشعرت كما لو أن الرب غرز شوكة في جبيني؛ فما عدت أعلم صوت مَنْ أسمع. وأدركت أن كوني **ابن الله** لا يعدل كوني **أمير السماء** بل يعني أن أتعلّم كيف أتكلم ببساطة وحكمة، ولا أبلبل الناس بألق الكلمات، وأن أعلم متى يتكلم الرب بلساني ومتى لا يتكلم، وهذا أصعب الأمور.

وفيما نحن ننتظر ونعمل كي نبقي أرواحنا معاً، مرّت بي ساعات من الشكّ. فأنا لم أترك سبيلاً إلا وطرقته كيما أصل قلوب بني جلدتي من يهود، وبشر صالحين، وحتى وجوه الجماعة، غير أن أكثرهم نفر مني.

وكان حينئذٍ أنني خضت ويهوذا أطول محادثة بيننا. ففي ساعة من ساعات الشكّ، سألته: «لِمَ لا يلتحقون بي؟ كيف يمكنهم ألا يرغبوا في دخول **ملكوت السماء**؟».

وسارع إلى إجابتي كما لو كان قد هيّأ نفسه. قال يهوذا: «هذا عائد إلى أنك لم تفهمهم. تتكلم عن نهاية هذا العالم ودخولنا في عالم آخر. غير أن الصيرفي أو التاجر لا يريد لهذا العالم أن ينتهي. فهو مكتفٍ بانتصاراته الصغيرة، ويرغب في أن يطيل التفكّر بخسارات يومه. ولذا فهو على دراية بجميع الأشياء التي يثبت أنها أقلّ طهارة أو أقلّ قذارة مما يفترض الآخرون. إنه يعيش من أجل لعبة الحظ. وهذا ما يجعله تقياً جداً حين لا يلعب. وهو لا يتوقع أبداً أن يكون الرب محبذاً للحظ، ومع ذلك فإنه يتمتع بالحياة حتى إنها لعبة بالنسبة إليه لا شأناً خطيراً. ما عدا المال. فالذهب هو محور فلسفة هذا الشخص. أما الخلاص فهو موجود لكي يتأمل المرء في أفكاره وليس في أفعاله. بل إنه يقدر أيضاً أن يعيش ما تقوله عن الخلاص، ما لم تطلب منه الكثير. وها أنت تسأله أن يتخلّى عن كل ما لَهُ

twitter @baghdad_library

من أجل الخلاص. وبذا تهينه إهانة عميقة. وتريد للعالم أن ينتهي كيما يحلّ مجدنا جميعاً. غير أن التاجر أَعْرَفُ. قليلٌ من هذا، قليل من ذاك، ويكون العليّ مبجلاً، من بعيدٍ، بالطبع».

قلت له: «تتكلم كما لو كنت توافقهم».

«غالباً ما أكون أقرب إليهم في أفكاري من قربي إليك».

«لِمَ أنت معي إذاً؟»

«لأن كثيراً من أقوالك أقرب إليَّ من أية متعة أستمدّها من مراقبة ألعابهم. ولأني ترعرعت بينهم، فأنا أعلم ما في قلوبهم، وأمقتهم. لا يشكّون في أنهم صالحون. ويرون أنفسهم أغنياء بالتقى، والإحسان، والإخلاص لشعبهم. ولذا أحتقرهم. فهم لا يحتملون الشقّة الشاسعة بين الغني والفقير وحسب، بل يوسّعونها».

«ولذا أنت معي؟»

«أجل»

«ألأني أعلّم أننا لا نقدر أن نبلغ **ملكوت السماء** حتى لا يعود أغنياء ولا فقراء؟»

«أجل»

«غير أنك تتكلم كمن لا يهتم لدخول **ملكوت السماء**».

«الله يستوقفني، لكنني لا أؤمن به».

«لكنك تقول إنك معي، فلماذا تكون معي إذاً؟»

«أتطيق الحقيقة؟».

«لست شيئاً بغير الحقيقة».

«الحقيقة، يا عزيزي يسوع، هي أنني لا أؤمن أنك ستخلصنا جميعاً. غير أن أقوالك تمنح الفقراء شجاعة أن يشعروا أنهم مساوون للأغنياء. وهذا يسعدني».

«هذا فقط؟»

«إنني أكره الأغنياء. فهم يسممونا جميعاً. وهم تافهون، بلا جدارة. يبددون آمال أولئك الذين هم أدنى منهم. ويقضون حيواتهم كذباً عليهم»

حرتُ جواباً. لكنه لم يزعجني. والحقّ أنني ابتهجت. فقد رأيت أنه سوف يعمل لأجلي، وبكدّ. وبذا سوف يُعِيْنُ في خلاصنا جميعاً. ويا لتلك الابتسامة الفرحة المبهوتة التي سترتسم على محيّاه حين ندخل البوابات معاً. حينئذ فقط سيعلم أن كل ما قلته قد جاء حقّاً من عند أبي.

لقد أحببت يهوذا. لقد أحببته في تلك الساعة أكثر مما أحببت بطرس. لو تجرّأ كل تلاميذي على أن يَصْدقوني القول كيهوذا، لكنت أقوى وأنجزت أشياء كثيرة.

وسألته: «لو توقفت عن العمل من أجل الفقراء، ولو مثقال ذرّة، فهل ستقلّ قيمتي في نظرك؟»

«بل سأنقلب عليك. من يكون مهيّئاً لأن يبتعد عن الفقراء قليلاً سرعان ما يكون مهيئاً لأن يبتعد عنهم كثيراً».

لم يكن بدٌّ من أن أُعجب بهذا الرجل. فيهوذا لم ير المجد الذي رأيته. لكن قناعاته كانت راسخة لديه كقناعاتي لديّ. أجل، لقد أعجبني أكثر من بطرس، فإيمان هذا الأخير كان أعمى كالحجر، وبذا كان يمكن لحجر أكبر أن يفتّته.

وعلمت أيضاً أن مشكلةً قد تنشأ بين يهوذا وبيني. فهو لا يملك أياً من الأسباب التي ألقاها أبي في قلبي ليهيئني لتلك التجارب التي قد تقع بنا دون انتظار.

ويمكنني القول أيضاً إن هذه المحادثة مع يهوذا كانت رائعة في إزالتها كلّ تشوش أو اضطراب. فقد بدا كلّ شيء في النهاية مرتّباً منظّماً. ولم أصدّق أننا كنّا مهيئين للانطلاق أخيراً إلى أورشليم، غير أن ذلك الصباح كان صباح خير. ومع أن أحداً منا لم يكن دون مخاوف، إلا أن السعادة قد مدّت إلينا بأطرافها. فنحن لم نعد عبيد الخوف. وأرجلنا أدركتْ ما كان فينا من فرح وبهجة.

twitter @baghdad_library

وحينئذٍ، حينئذٍ فقط، خطونا باتجاه أورشليم. وفي مسيرتنا القوية الناشطة، آمن كثيرون أن **ملكوت السماء** سوف يظهر خلال يومين ما إن نقترب بما يكفي لأن نبصر أورشليم. وأنّ الرب سيكون بيننا.

ـ 31 ـ

غير أن محادثتي مع يهوذا لا بدَّ أن تكون قد عكّرتني أكثر مما كنت أعلم. ففي الطريق إلى أورشليم حلّت بي الحمّى. وأخذت أطرافي تئنُّ وتتوجّع ونحن نمشي. وفي الليل لم يفارقني الألم. ولم يفارقني في الصباح الذي تلا.

ولمّا كان المساء، ولمّا يزل أمامنا مسير يوم إلى أورشليم، اجتزنا في أريحا وإذا رجلٌ غنيّ اسمه زَكّا رغب بأن يرحّب بي ولم يقدر من الجمع لأنه كان قصير القامة؛ فصعد إلى جُمَّيزة لكي نراه.

وقلت له: «يا زَكّا، انزل. سأمكث اليوم في بيتك».

وقَبِلَني فرحاً. غير أن الآخرين قالوا إنه لا يليق أن أحلّ ضيفاً على أغنى عشّار في أريحا. فقال زَكّا: «يا رب، لأنني عرفتك، أُعطي نصف أموالي للمساكين».

وسُررت. لأنه إذا كان غنيّ قد تخلّى عن نصف ثروته لأنه آمن بي، فإن أسواراً يمكن أن تسقط في أورشليم. ونمت قرير العين تلك الليلة الثانية في بيت زكّا.

وفي الصباح ونحن خارجون، جاءت أختا لِعَازَر، أحد أتباعي، لتقابلانا. وكنت قد تغدّيت مع لِعَازَر في كفر ناحوم، وعرفت فيه ذلك الرجل الصالح. وها هما أختاه مريم ومَرْتا قد خرجتا من بيته في بيت عَنْيَا لتجداني، وقالتا: «يا سيّد، لِعَازَر مريض، حبيبنا لِعَازَر».

ومن صوتهما عرفت أنه مريض مرضاً للموت.

twitter @baghdad_library

وطفقتا تبكيان. وكما لو أنني رفيقه في المرض، عادت إليّ الحمّى؛ وطارت ليلة الراحة. وكان عليّ حينئذٍ أن أمكث في بيت زكّا ليلتين، ولما يزل أمامنا مسير يوم كامل إلى أورشليم. وحين أفقت في خامس صباح لمغادرتنا الجليل، كان جسمي صحيحاً لكنني كنت كمن حلّت به البليّة، وقلت: «لِعازَر قد مات».

فصاح توما الرسول: «لنذهب نحن أيضاً إلى أورشليم لكي نموت معه». وتوما كان بسيطاً، كثيراً ما ينطق بما يجول في فكر الآخرين. وقوله أشاع جوّاً من الغمّ.

مشينا طوال النهار حتى المساء قبل أن نأتي إلى بيت عنيا، حيث كان لِعَازَر يعيش في بيتٍ على مسير ساعة من أسوار أورشليم. ورأيت كثيراً من اليهود في طريقهم إلى منزِله. وجاءت أخته مَرْثَا لتلاقيني، وقالت: «يا سيّد، لو كنت ههنا، لم يمت أخي».

ووافقتها. غير أني قلت لها: «سيقوم أخوك».

ثم جاءت مريم، أخته الأخرى، وخرّت عند رجليّ وقد جاء معها كثيرون أيضاً وهم يبكون، وحين نظروا إليّ، قلت: «أين وضعتموه؟»

فقالوا: «يا سيّد، تعال وانظر»

أنّى كان لي أن أعلم ما إذا كان الرب سيهبني القدرة على إعادته إلى أختيه؟ فلعازر قد صار له يومان في القبر.

وتحلّق حولي كثير من اليهود، أصدقاء الميت، وإذْ رأوني في كَرَبٍ، قالوا: «انظروا، كيف كان يحبّ لِعَازَر!».

وقادوني إلى مغارة قد وُضِعَ عليها حجر. وقلت لهم: «ارفعوا الحجر».

فقالت مرثا: «يا سيّد، ما الذي سيكون قد حلّ بجسمه؟»

وعند إشارتي رفعوا الحجر عن باب المغارة. ورفعت عينيّ إلى فوق وصحتُ، وهدر صوتي في حلقي: «أبتاه، ليخرج لِعَازَر!».

ثم صَمَتُّ.

حين تترك الروح الإنسان، كلّ ما هو نجس في روحه يتحلل أيضاً. ولذا كنت أنتظر أن تدخل تلك الرائحة أنفي. والحقّ أني سألت نفسي: «كيف للمرء أن يقيم ميتاً من قبره وكلّ الشرّ في ماضيه يشدّه إلى هناك؟»

لا بد أن الرب قد سمع لكلامي.

رأيت وجه لِعَازَر.

رأيته يتململ.

وصرختُ ثانيةً: «لعازر، هلمَّ خارجاً». وسمعته يجيبني.

قال لِعَازَر: «آه، يا يسوع، ثمة مخلوقات صغيرة تكلّمني، وتقول لي: (لست سيّدنا، يا لعازر، بل خرقتنا). هكذا تتكلّم النزوات».

وصلّيت لكي يكفّ عناؤه. وكان حينئذٍ أن لعازر نهض في قبره. رأيته يخرج من فم المغارة ويخطو خطوات صغيرة متجهاً إلي. وكانت خطواته تلك صغيرة لأنه كان مربوطاً بأقمطة. وكان وجهه ملفوفاً كذلك. وقلت لأختيه: «حُلاَّه، لكن لا تنظرا إليه».

وحينئذ، قال لِعَازَر، بصوتِ مَنْ كان يسكن أرضاً لم يطأها الآخرون: «النزوات أفلتنني». وكان صوته كصوت عصفور صغير. غير أنه كان حياً.

كل الذين نظروا إلى ذلك ارتدّوا إلى الخلف في عجبٍ. وعلمت أن قيافا رئيس الكهنة في الهيكل، سوف يجمع مجمعاً ما إنْ يسمع بما جرى. فالذين رأوا لعازر يقوم لم يكونوا قلة. وهم يعلمون أنه قد أنتن في القبر. وسوف يدعوني الفرّيسيون شيطاناً. ولم لا؟ فقد قدرت أن أقيم إنساناً كان قد بدأ يتفسخ.

وكأنني كنت أسمع رئيس الكهنة وهو يقول: «إنْ تركنا هذا اليسوع هكذا، يؤمن جميع اليهود به. فيعتقد الرومان أننا في ثورة. ويأخذون كل ما لنا قبل أن ينتهي الأمر».

وكنت أعلم أن قيافا رئيس الكهنة قد يقول أيضاً: «أَمِنَ الخطأ أن يموت إنسان واحد فلا تهلك البقية؟ أمن الخطأ أن يموت هذا الإنسان الواحد؟».

twitter @baghdad_library

في ذلك اليوم لم أذهب إلى أورشليم بل نمت في بيت لِعَازَر. وحين ودّعتهم في الصباح، كان ضعيفاً وكانت روحه منقبضة. وسألته: «هل تؤمن؟» وقال لِعَازَر: «إنني مرتعب مما رأيت في الموت. غير أني أحاول أن أؤمن». وكان يمسك بذراعي على الرغم من ضعفه. وقال: «لقد جاءني ملاك. كل شيء يهون».

وقلت للِعَازَر: «لا تخف. لقد نلت حظوة لدى الرب». وصلّيت لنفسي عساني كنت أقول الحقّ.

ـ 32 ـ

رغبت في أن يشعر شعبي بالعزم لدى دخولنا أورشليم، فأرسلت تلميذين وقلت لهما: «اذهبا إلى القرية التي أمامنا واسألا عن جحش لم يجلس عليه أحد من الناس. وحين تجدانه، إتياني به. قولا لهم الرب محتاجٌ إليه».

وذهبا وسرعان ما وجدا جحشاً، فتياً ونشيطاً، وعادا به. وجلست على هذا الحيوان الذي لم يعرف، إلى الآن، راكباً، وأمسكت بعُرفه. ذلك أنني إن لم أستطع أن أُخضع البهيمة الفتية، كيف لي أن أُسكّن الهياج في قلوب الرجال الذين ينتظرونني في الهيكل؟

وللوقت، كفّ الجحش عن الوثب وراح يَطْفُر، وتقدّمنا في موكب. وقد راق لي الحيوان. وشعرت أيضاً بجوعٍ وكأنني لن أذوق طعاماً مرَّة أخرى.

وحينئذٍ، نظرتُ شجرة تين مثقلة بالورق، فجعلت الجحش يخبّ نحوها لكي آخذ منها كفايتي. فلم أجد على أغصانها تينة ناضجة.

أكان ثمة ريح معادية تهب صوبنا؟

قلت لشجرة التين: «لا يأكل أحد منك ثمراً بعد».

غير أن ثقلاً هبط على قلبي إذْ لعنت جذور الآخرين. وقلت لنفسي: «أنا ابن الله، لكني إنسان أيضاً؛ وما يربط الإنسان بالحياة ليس سوى خيط واهٍ إن عاش من غير هدمٍ وطيش».

وبذا علمت أيضاً أن الشيطان لمّا يزل متشبثاً بي. فقد أنزلتُ البلاء بالشجرة مثل نسر يمسح الحقول بحثاً عن مخلوق صغير، ثم ينقضّ للقتل.

twitter @baghdad_library

حينئذٍ، كان جمع الرجال والنساء الذين تقدّموا يقطعون سعف النخل ويفرشونها في طريقي. وكانوا يرنمون: «أُوصَنَّا! مبارك الآتي باسم الرب. مباركةٌ مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب. أُوصَنَّا في الأعالي». وصرخ البعض: «مباركٌ الملك الآتي باسم الرب». وهذا الشعب من أورشليم (ومعظمهم لم يرَني من قبل) كانوا مفعمين تأييداً ومساندةً؛ ومن النوافذ، لوّح لي كثيرون. فخبر أعمالنا الصالحة كان قد سبقنا إلى أورشليم.

غير أني لم أنسَ شجرة التين. لا بدّ أن أغصانها قد تعرّت الآن. وهذه الخواطر جعلتني أتفكّر في النهاية التي انتهت إليها مدينة صور. فمنذ ألف سنة كانت صور مسكونةً بالسناء والأبّهة، واشتهرت بمناضدها الخزف، وزمردها، وكتّانها الأرجوان، وعسلها، ونخيلها، ومرجانها، وعقيقها، وخزائنها المصنوعة من الأرز. غير أن البحر جرف ذلك كله. هل سيقال ذلك عن أورشليم، الثرية اليوم كثراء صور فيما مضى؟

حدّقتُ بالأبنية البيضاء العالية بأعمدتها الطويلة حتى إني لم أعد أعلم إن كنت أنظر إلى هيكل أم إلى مقرّ حكومة الرومان. وقلت لنفسي: «ينبغي اختيار اسم أصلح من الثراء العظيم»، لكن كلماتي كانت تقيّة جداً (لأن قلبي كان قد وثب لمرأى هذا الثراء). فقلت أيضاً: «فم امرأة غريبة هو حفرة عميقة. ومدينة عظيمة هي مثل امرأة غريبة».

غير أني لم أقدر أن أزدري أورشليم. كان شعب إسرائيل الآن يعيش في فخامةٍ كما في زمن الملك سليمان، حين عمل تخته من أرز لبنان، أعمدته فضة، وروافده ذهباً، ومقعده أرجواناً، وزخرفته بنات أورشليم. أعجوبة كانت أورشليمُ أيام الملك سليمان، وأعجوبةً كانت الآن.

لكن أتباعي لم يُتح لهم أن يشاركوا في هذا المجد. وأبصرتُ نبيلاً رومانياً يقف أمام موكبنا وينظر إلى مئاتنا تسير مثنىً وثلاثاً ورباعاً في الطريق. وكان البعض قد لبسوا ملابس حسنة، أمّا معظم الشعب فكانوا في ثياب بسيطة، أو أسمال بالية.

ورحت، أنا أيضاً، أنظر إلى هذا الحشد الذي ينتمي إليَّ. كان شعب أورشليم ينضمون إلينا زمراً زمراً؛ وكنت أرى وجوهاً كثيرة بكثرة أوجه الإنسان. وبين من لحقوا بنا كان كثيرون لا يمكن أن نعدّهم مؤمنين بل فضوليين ومُعَذَّبين وعيّابين ساخرين، وقد رافقنا هؤلاء الأخيرون كي يسخروا من الفرّيسيين فيرّدوا لهم الصاع إذْ وبّخوهم.

وكان البعض من هؤلاء الأتباع الجدد مؤمنين. وفي أعينهم لمع أمل بأن آتيهم باعتقاد جديد لا يثقل عليهم كما يثقل الاعتقاد القديم، الذي زرع الكآبة والرتابة في قلوبهم لكثرة ما رددوا الصلوات ذاتها. وكان ثمة أطفال يتطلعون في كل ناحية ويضحكون عجباً لسخاء الله الذي خلق كلّ هذه الوجوه؛ وبدوا أكثر الناس ابتهاجاً. كما كان أيضاً رجال في وجوههم بَرَمٌ وعبوس واستياء مخيف.

وكان الفقراء. رأيت في أعينهم ضيقاً شديداً، وأملاً جديداً، وحزناً عميقاً، لكثرة ما خُيِّبوا. وكلّمت الجميع، صالحين وأشرار على السواء، كأنهم واحد، ذلك أن التحوّل إلى الأحسن يمكن أن يحصل بسرعة في أوقات كهذه. وفي الإنسان الفاسد، يمكن للشرّ والخير أن يتبدّلا بأسرع ممّا في الإنسان الصالح؛ فالفاسدون أَعْرَفُ بخطاياهم وكثيراً ما يُرْهَقُون في مغالبة الندم.

وبازدياد الحشد، امتلأ الجحش أرواحاً شريرة، لكنها فتيّة وليس لها تلك الرائحة الكريهة في الشياطين الخبيرة. حرنتْ بهيمتي، وعلمتُ أنها كانت تفكّر أن تقذفني من فوق رأسها على حجارة الطريق. لكني لم أنزل عنها. فهي جحشي. وشعرتُ في تلك اللحظة كأني سيّد الخير والشرّ.

في تلك اللحظة وحسب. ذلك أني ما إن اقتربت من الهيكل، حتى تعاظمتْ فيَّ المهابة والرهبة. ولم أستطع أن أصدّق أنني لست مجرّد يهوديّ بحرفةٍ متواضعة يدنو من صرحٍ عظيم ومقدّس. كنّا ندنو من هيكل الهياكل، وقد بنوه على جبل.

twitter @baghdad_library

وقبل أن نصل إليه، تذكّرت أن أدراجه ترتفع من فناء إلى فناء، لتواجه أكثر من مُصَلًّى ومَقْدِسٍ مهيب، وأن ثمة حجرة لا يدخلها إلا رئيس الكهنة في يوم واحد من العام. وتلك هي **قدس الأقداس**. صحيحٌ أنني **ابن الله**، غير أني ابن أمي أيضاً، ولذا كان احترامي للهيكل يتنامى مع كل نفس أتنفسه ويطغى على رغبتي في تغيير جميع ما كان فيه. وارتعشتُ حين راح الرجال والنساء أمامي يهتفون ما إن بلغوا بداية المرتفع. وسرعان ما رأيت، مثلهم، أسوار الهيكل وأنا أرتقي التلّ.

كنت مأخوذاً بالمنظر، غير أني كنت أعلم أيضاً أن الخطر يلفُّ مستقبل هذه الفخامة. ففي السنوات القادمة، سيخرب الأعداء الأسوار فلا يبقى غير سورٍ واحدٍ. لن يظلّ حجر على حجر. وكلّ ذلك سيحدث ما لم يفهم كهنة الهَيكل أن رسالتي من عند الرب.

وبكيت على الملأ، وأنا جالس على الجحش، أول ما وقع بصري في هذا الصباح على الهيكل. كان جميلاً، لكنه لم يكن أبدياً. ورحت أفكر في كلمات عاموس، الذي قال: «تَبِيدُ بيوتُ العاجِ». وحينئذٍ ترجّلتُ، وتابعتُ سيراً على الأقدام.

ـ 33 ـ

حين صعدت درج المدخل، أصبحت في داخل الهيكل. خلف البوابة الأولى، كان فناء كبير والجميع يبيعون ويشترون. كيف يمكن للمرء أن يُعجَب بلحى رجال **مامون** هؤلاء! وقد عُقِصَتْ بمكواة حامية وبدتْ لزهوهم نظيفة نقية. وبدا أولئك الصيارفة مثل الطواويس. وبدا الكهنة أيضاً مثل الطواويس وهم يتنقلون بينهم. الكلّ باطل. موائدهم عامرة في بيوتهم، فيما الفقراء يجلسون في أزقة المدينة المنتنة.

ولفَفْتُ الصمت حولي مثل ثوب مقدّس لا يجرؤ الآخرون أن يلمسوه. وجلست وحدي على مقعد من حجر ورحت أنظر كيف يلقي الجمع نقوداً في الخزانة. وكان أغنياء كثيرون يلقون كثيراً. فجاءت امرأة فقيرة، عليها أسمال بالية، وألقت هناك فلسين. فقفز قلبي.

دعوتُ التلاميذ الذين هم بقربي وقلت: «هذه المرأة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الأغنياء. لأنهم من فَضْلَتِهِمْ ألقوا. وأما هذه فألقت معيشتها. ولذا فقد جعلت النقود تقدمةً للرب. وأما الأغنياء فلا يعطون إلا لكي يرى واحدهم الآخر».

وفكّرت بالمال، كيف أنه بهيمة كريهة. بهيمة تلتهم كل ما يوضع أمامها. ويا لذلك اللعاب الذي يُسيله مثل هذا الطمع! فكّرت كيف أن الأغنياء يخنقهم ثقل الذهب، وبساتينهم لا تعطي أيّ ثمر يشبعهم. ثمة ظلم يعبق في الجوّ، وكلّ زهور الغني لا تسعده. فجاره أكثر غنى منه وبستانه أجمل. والحسد يأكل الأغنياء على الدوام تجاه ذهب الآخرين.

twitter @baghdad_library

وهناك، في فناء الهيكل، وهؤلاء الصيارفة يحيطون بي من كلّ صوب، خاطبتهم جميعاً، وصوتي كان صوتي. قلت لهم: «لا يقدر أحد أن يخدم سيّدين. لأنه يلازم الواحد الذي يحتاجه وفي سرّه يحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله **ومامون**».

وحينئذٍ سمعتُ **الشيطان** يكلمني لأول مرّة منذ أن كنّا معاً على الجبل. قال لي: «قبل أن ينقضي الأمر، يتملكك الأغنياء أنت أيضاً. لا يبقى جدار إلا ويضعون عليه صورتك. وكنوز الكنائس العظيمة تنتفخ بالصدقات المرفوعة باسمك؛ وسيعبدك الناس أكثر حين تنتمي إليَّ بقدر ما تنتمي إليه. وهذا هو العدل. فأنا ندّه». وضحك. كان يعلم ما سيقوله بعد ذلك:

«الطمع بهيمة، كما تقول، ولكن انظر! إن برازه يُثَقَّل بالذهب. أليس الذهب لون الشمس التي ينبت منها كلّ شيء؟».

وارتأى الرب أن يردّ في أذني الأخرى: «ليس معنىً لما يقوله. وهو يلقي هذه الخطبة على كلّ من يلفت انتباهه، ولا يلفت انتباهه سوى الأحسن، والأجمل، أولئك الذين صنعتهم برجاء عظيم. ويحتقر أولئك المتواضعين ممن يظلون معي».

وقد فاق ذلك كلّ ما قاله **أبي** مرة أخرى عن **الشيطان**، غير أنه في تلك اللحظة لم يُعط إيماني سوى قوة زهيدة. أكان **أبي** يتكلم عن الأذلاّء كلاماً حسناً إذْ لم يبق سواهم على إخلاصه له ولي؟ يا لهذه الفكرة كم فيها من التشوّش والعماء! وسقطتُ فريسة نقمة أعظم من كلّ نقمة عرفتها من قبل.

في أعين الصيارفة، كان الطمع حاداً كرأس رمح؛ وتذكرت غضبة أشعيا. وصرخت بكلماته: «جميع الموائد امتلأت قيئاً وقذراً، ليس مكان!».

وقلبت كلّ الموائد أمامي. طوّحت بها وبالمال الذي كان عليها، وتهللت حين راحت النقود تطلق صرخات صغيرة وهي تصطدم بحجارة الفناء. وركض كل صاحب مال وراء نقوده الضائعة كخنازير الجدريين حينما اندفعت إلى البحر.

وقلبتُ كراسي باعة الحمام وفتحتُ الأقفاص. وعلى هياج الأجنحة هذا جاء جمع من كانوا معي وهتفوا لجرأتي على الربا.

قلت: «بيتي بيت صلاةً سيُدعى لجميع الأمم. وأنتم رجال مامون جعلتموه مغارة لصوص».

كانت تلك هي الحقيقة. فالرجال الذين يجدّون في طلب مامون هم لصوص. لصوصٌ ولو لم يسرقوا كيلة قمح. وطمعهم يجرّدُ من الفضيلة كلّ من يحاكيهم.

وسرعان ما سيحكي الكهنة بهذا العمل في كل مَقْدِسٍ في الهيكل. لأن الكهنة، كالصيارفة، يُبْقُون حساباتهم مع الله بعيداً عنً حساباتهم مع مامون. وكم يسارعون إلى سقاية كروم الجشع الطالعة في جانبٍ من نفوسهم.

twitter @baghdad_library

ـ 34 ـ

في وسط هذه الفوضى، رحتُ أذرع المكان بين الموائد المقلوبة وقلت: «انقضوا هذا الهيكل. وفي ثلاثة أيام أقيمه».

وكانت الشجاعة لدى أحد الصيارفة فقال: «في ستٍّ وأربعين سنة بُنِيَ هذا الهيكل. أفأنت في ثلاثة أيامٍ تقيمه؟»

وعجبت حينئذٍ لما قلته. حماقة! ففي الجمع ورائي كثيرون جاهزون لأن يدكّوا كل شيءٍ لا يعود إليهم. كذا كلمة الهدم، ما إن تُلفظ، حتى تصنع أذى عظيماً في قابل الأيام. فالكلمات الخشنة تعيش في سجن القلب. لا ترقّ أبداً؛ ولا تصفح. فهي محبوسةٌ.

وشعرتُ بالندم. كانت أمامي أبنية كثيرة بجمال طاهر. ولو أنني كنت حاجّاً يطوف في هذه القاعات، لشعرتُ بالرهبة أمام مهارة البنّائين.

وفيما كنت أفكّر هكذا حاولت أن أذكّر نفسي بأني هنا كي أعلّم، لا كي أدمّر وأنقض.

وقلت إن الرب لمّا يزل معي. لأن غضبه قد كان هناك مع غضبي، أليس كذلك؟ ومن سوى **أبي** كان يقول لي حينئذٍ أن أتلطّف؟ قلت لأتباعي: «احترموا هيكلنا. هؤلاء الصيارفة ليسوا سوى فضلة الشرّ. يمكن حكّهم وإزالتهم عن الحجر. تعالوا معي أيضاً في هذه المواضع المقدّسة، وأنا أعلّمكم».

وأخذتهم إلى حديقة هادئة بين قاعتين صغيرتين للصلاة؛ وكان ثمة أرزة تفيء بظلّها علينا. وحينئذٍ، كما توقعت، جاء وفد من الكهنة والكتبة وكثير من الشيوخ. وقال المتكلم باسمهم: «كنا ننتظرك. غير أننا لا نفهم

هذه الطريقة التي وصلت بهـا. بـأيّ سـلطان تفعـل هـذا ومـن أعطـاك هـذا السلطان؟».

فأجبت: «وأنا أسألكم كلمة واحدة. فإن قلتـم لي عنهـا، أقـول لكـم أنـا أيضاً بأيّ سـلطان أفعـل هـذا. معموديـة يوحنـا مـن السـماء كـانت أم مـن الناس؟»

كنت أعلم أنهم سيفكّرون في أنفسهم قائلين: «إن قلنا من السماء، يقـول يسوع فلماذا لم تؤمنوا به؟ وإن قلنا مـن النـاس، نخـاف مـن الشـعب. لأن يوحنا عند الجميع مثل نبيّ»

ولأن هؤلاء الكهنة كانوا يعتمدون على ولاء اليهود الأتقياء، وكان هـؤلاء اليهود يخشون كثيراً من أن كهنتهم قد أقاموا ودّاً وصداقة مع الرومـان، لم يكن مجالٌ أمامهم كي يقولوا إن يوحنا كـان نبيـاً. فعندئـذ يمكـن أن أقـول لهم: «لِمَ لَمْ تتوسطوا لدى الرومان وتنقذوا يوحنا؟»

ولذا أجابوا: «لا يمكن أن نقول».

فقلت لهم: «ولا أنا أقول لكم بأيّ سلطان أفعل هذا».

وتقدّم واحدٌ من الكتبة. اقترب مني بطمأنينـة دون ارتبـاك فعلمـت أنـه من عائلة نبيلة. عيناه زرقاوان ولحيته البنيـة ناعمـة. وابتسـم وكأنـه مفعـم بالحبّ نحوي. بل إنه قال وهو يحييني: «يا معلّم»، وكان ذلك نوعـاً مـن الكياسة بعد تلك الفوضى الـتي سـبّبتها في الفنـاء؛ فهـو، وإن لم يكـن قـد استحسن فعلتي، لا يزال يدعوني معلّماً. وقال: «يا معلّم، نعلـم أنـك تريـد أن تعلّم طريق الحقّ. وأرجو أن تجيب على هذا السؤال. فهو يهمّنا. أيجوز أن تُعطى جزية لقيصر أم لا؟».

على الرغم من كل اللطافة التي أبداها هذا الرجل، كنت أعلم أيضـاً أن للشيطان مُسَخريه وأتباعه الذين لا يقلّون عنه وسامة. فإن قلت لا يجوز أن تُعطى الجزية لقيصر، وهو ما كان ينتظر مني أن أقوله، كما أتوقع، يمكـن للفرّيسيين أن يخبروا والي أورشليم بأني أقود تمرداً ضد الرومان.

غير أن فطنتي كانت كالسهم. فقلت: «أروني ديناراً».

twitter @baghdad_library

وحين قدّموا لي الدينار، سألتهم: «صورةُ مَنْ على هذه العملة؟»
قال الرجل من الكتبة: «إنها صورة قيصر».

فقلت: «أعطوا لقيصر ما لقيصر. وما لله لله». وسُررتُ. لأنني كنت أقول لهم أيضاً إنَّ **مامون** هو إله الرومان، وليس إله اليهود.

وشعرت باحترامهم. فقد أبصروا حينئذ أنني لا أملك القوة لقلب موائد الصيارفة وحسب بل الحكمة لتفادي الردّ المتهور العجول.

وحين تأمّلت بعد ذلك فيما قلته، وجدت أن جوابي قد كان ذكياً جداً. ولكن إذا كانت مبايعة قيصر هي التي تُبقي على كنائس كثيرة في أراضي الشرّ، فأنا لم آت لأبني الكنائس بل لأخلّص الخطاة. لماذا، إذاً، كان ردّي كذلك؟ أكان الله قد اختطّ لي التعقّل والاحتراس أحسن السُّبل؟ وهل سيترك للكنائس الآن أن تنمو في مستنقعات الأبّهة **ومامون**؟

- 35 -

رأيت أن هذا الكاتب الذي دعاني «يا معلّم» يريد أن نواصل كلامنا. وسألني: «أية **وصية**، بحسب فهمك، هي أوّل الكلّ؟»

فأجبته: «الربّ، إلهنا، ربٌّ واحد. هذه هي أول كل **الوصايا**. والثانية هي أن تحبّ قريبك كنفسك».

وقال الكاتب: «محبة القريب كالنّفس هي أفضل من جميع المُحْرَقَات والذبائح».

كانت طريقته في الكلام معي حكيمة. أيمكن أن يكون **معلّم الكتاب** في الهيكل؟ سلوكه كان حاذقاً مثل لحيته المعقوصة بحذق. وكلامه كان أنيقاً كمظهره. غير أن عينيه كانتا باهتتين مثل الزرقة الباهتة في السماء حين تكون السماء بيضاء. ولذا لم أثق به. غير أني كنت أصغي إليه حين قال: «جميعنا، هنا، مختونون. ونشترك في إيمان واحد. وكثير منا في هذا الهيكل لا يصدّقون أنك أتيت لكي تباعد فيما بيننا بل لتقرّب أحدنا من الآخر. ولا نزال نصدّق ذلك، على الرغم من الفوضى التي تبعتك مثل الغبار أمام العاصفة». وتوقف لكي يزيد من أثر ما يقوله. وكان الجميع حينئذٍ يصغون إليه. ثم قال: «غير أن هنالك عواصف تُطَهِّر. ولهذا أسألك، يا معلّم، متى يكون **ملكوت الله** معنا؟».

وفيما كان يتكلم، كنت أسمع ذينك الصوتين اللذين يسكنان جنباً إلى جنب لدى كثير من الفرّيسيين. فكلامهم غالباً ما يَصطبغ بالتهذيب والكياسة، غير أن في تلفّظهم سخرية هادئة مبثوثة في كياستهم كالغبار في الرمل. غير أني أصغيت. فقد كان لديه شيء من الرغبة في أن يصدق أني

twitter @baghdad_library

ابن الإنسان. ولعلّ الكهنة الذين أرسلوه أن يكونوا مهيئين للاستماع. ولذا رحنا نتكلم كندّين. ولم يكشف عن معرفته باللفائف إلا في الساعة التالية، فبدأ بيننا جدال لطيف فيما يختصّ بالشفاء في السبت.

وسألني: «هل تتذكّر الآية القائلة: ولما كان بنو إسرائيل في البريّة، وجدوا رجلاً يحتطب حطباً في يوم السبت، فقدموه إلى موسى وهارون وكلّ الجماعة. فقال الرب لموسى: قتلاً يُقْتَل الرجل. يرجمه بحجارة كلّ الجماعة. فأخرجه كلّ الجماعة إلى خارج المحلّة ورجموه بحجارة فمات». وحينئذ قال الكاتب: «كان هذا منذ ألف سنة، وجماعتنا اليوم لن ترجم مثل هذا الرجل. أما القاعدة فيمكن أن تبقى. عملاً لا تصنع في السبت».

وقلت له إنني قد أجبت على هذا السؤال مرّات عديدة. وقلت: «إنْ كنتَ تختن الرضيع في السبت، أفلا تمسح القشور عن عينيّ الأعمى وتثني أطراف الأعرج؟».

وحينئذٍ، بدأ يتكلم بمهارة وبراعة حتى إنّي لم أعد أعلم كيف أقاطعه أو متى.

قال: «طوال هذه السنة وأنا أنتظر أن أكلمك. فقد أطلت التفكّر في أعمالك، يا معلّم، وأقول لك، كما قال النبيّ صموئيل للملك شاول: (التمرّد كَخَطِيَّةِ العِرَافَة). فتأمّل في هذا الذي قلته للتوّ. إن كنت قد أتيت من عند الذي لن تُفْصِحَ عنه بل تريد أن نؤمن أنه الرب، فلماذا لا تقول ذلك؟ لأنك إن لم تفصح عن نفسك، قد يكون الألم والعناء نتيجة أعمالك الصالحة. فأعمال الشفاء التي عملتها قد بدت لنا مثل العرافة وممتلئة بنار التمرد المتأججة. ونحن الذين في الهيكل نخشى هذه النار. وقد عملنا ألف سنة في تعليم ما جاء في **الكتاب**. ومات كثيرون من أجل أسفار **التوراة** الخمسة. وبقوة إيماننا بنينا أسوار هذا الهيكل. ونقدر أن نحيا بسبب النور الذي يهدينا إياه. وهو النور الذي أهدتنا إياه أعمال شهدائنا. فقد ماتوا من أجل لفائفنا وأحكامنا. فأذكّرك، كما هو مكتوب في **سفر المكابيين الأول**، بأن الملك أنطيوكس، الوثني، مَلَكَ علينا، وكتب لجميع مملكته أن يكونوا شعباً

واحداً، يهوداً ووثنيين على السواء. وأمر الجميعَ بأن يطيعوا أحكام ديانته الجديدة ولو لم تكن ديانتهم».

«فأذعنت الأمم بأسرها، وكثيرون من إسرائيل، ويا للعار، ارتضوا دينه وعبدوا الأصنام. والحق أنّ كثيرين قبلوا هذه الرسوم التي رسمها أنطيوكس حتى أصبح المعيار الواضح للإنسان الذي لا يزال يهودياً صالحاً هو أن يُقتل ولا يُدنس السبت».

«ثم أمرنا الملك أنطيوكس بأن نترك بنينا قُلْفاً فلا نختنهم. ومن لا يعمل بمقتضى كلام الملك يُقتل. فهرب الإسرائيليون الصالحون من أورشليم. ووضع كهنة أنطيوكس خنزيراً على المذبح. وكل من وُجد عنده سِفر من العهد كان يُقتل. وكلما وجد الجنود أولاداً خُتِنوا، قتلوهم. وعلّقوا الكهنة الذين ختنوهم».

وقال الكاتب: «وتعلّمنا حينئذٍ أن **كتابنا** لا يقوى أن يكبح الشر ما لم يُطِع جميعنا أحكام **الكتاب** طاعة مطلقة. ولذا، فإننا حين نصغي إلى ما تقوله، لا نلمس أنك قد فهمت سنوات **الكتاب** الألف هذه. ولا نشعر بتقديرك لأولئك الذين استشهدوا في سبيل **الناموس**. بل نرى أنك، في تعجّلك لخدمة الله، تشجّع العشّارين، والخطاة، وحتى القُلْف. وتندفع لتهدم كل ما تعلّمته في سنوات تعلّمك. ألا تدرك أن رفض **الناموس** الأعمى هو شرّ مثل الوثنية؟»

وسمعت مزيداً ومزيداً من أصوات الموافقة والاستحسان بين أولئك الذين يصغون إلينا. وراح بعض جماعتي يدمدمون أنه محقّ. وكثيرون بكوا وهو يتكلم عن ميتات أولئك الشهداء.

وتمهلت الردّ. قلت له: «أتظن أني جئت لأنقض **الناموس** أو الأنبياء. ما جئْتُ لأَنْقُضَ بل لأُكْمِلَ». وتوقفت هنا، ونظرت في عينيه الباهتتين. «إن لم يزَد برّ أتباعي على الكتبة والفرّيسيين، فلن ندخل **ملكوت السموات**».

وقبل أن يتمكن من الردّ، أضفت: «كل ما تقوله صحيح إن كان الشعب يتقيد **بالكتاب**. لكنهم لا يفعلون. أرض إسرائيل هذه اقترفتْ خطايا عظيمة

twitter @baghdad_library

حتى إنَّ الرب ينظر الآن إلى شعب إسرائيل على أنه يعيش عيشة بغاء. ألا يُفترض بنا أن نجد سبيلاً لكي نخلّص البغي؟».

وأجاب الكاتب بنبرةٍ طليقة محمولة على أجنحة الثقة حتى إنَّ كلماته راحت تتراقص على لسانه؛ وفي تلك اللحظة سمعت **الشيطان** يتحرك في حلقه. لأنه قال: «نخلّص البغي؟ أجل، فأنت ستنتهي إلى القول للقُلْف، الشعب الذي ليس شعبك: (أنت شعبي)، فيقول لك: (أنت إلهي)». وضحك الكاتب بنعومة. وجميع السخرية التي مزجها بكياسته استقرّتْ فوقي. وبدا وكأنه يرى كلّ الأشياء الشريرة والحكيمة أما أنا فلا أراها. وبذا كان يعلم علم اليقين أن الأمم الأخرى من القلف جهلة يعبدون الأصنام أما هو، وغيره من الفرّيسيين الصالحين، فمن الشعب المختار.

ولم أتكلم إلى أن وجدت الكلمات التي كنت أبحث عنها. وحينئذ تكلمت بالعبرية، كما قرأتها في **الكتاب**. قلت له: «جاء في **سفر حزقيال**: (غنمي تشتتت إذْ لم يكن راع، وصارت مأكلاً لجميع وحوش الحقل. ولا سأل الرعاة عن غنمي، ورعى الرعاة أنفسهم. ها أنذا على الرعاة».

فأجاب الكاتب: «وهؤلاء الرعاة قريبون مني؟ أهذا ما تقوله؟».

كنت أفكّر أن السكران نفسه يعلم ما الذي يليق قوله الآن، فلا يبتعد عن الحصافة والحكمة. وكنتُ مفتقراً لكلّ علم بالكيفية التي أقدّم بها ما يكسب الكثرة ولا يسيء إلا إلى القلّة، غير أني لم تكن بي حينئذ رغبة في أن أكون حكيماً وحصيفاً. بل أردت أن يتذكر هؤلاء الفرّيسيون كلماتي على مدى الدهر.

فقلت للكاتب: «أريد أن أجمع قطيعي من جميع الأماكن، أينما تشتتت. فلا أزدري أولئك الذين هم قلف أو أولئك الذين يجهلون **الكتاب**».

وسألني: «أتقول إنك تهدي الوثنيين؟».

قلت: «أجل. فذلك لخلاص الجميع».

وصمتَ الكاتب؛ أحسب أنه كان منقبضاً. فقد درس تعاليم الأنبياء العظماء، الذين حلموا بالساعة التي يخلّص بها الله إسرائيل. لكنها لم تأتِ. أكان الكاتب يتساءل ما إذا كان هذا الجليلي وأهل القرى الذين معه يعرفون عن الخلاص أكثر من أبطالنا وأنبيائنا، بل وأكثر من ملوك ماضينا المقدس والمجيد؟

وتابعت القول: «الربُّ صنع فمي حاداً كالسيف. في ظلّ يده خبأني. وقال لي: (أنْهضْ أسباط يعقوب والبقية القوية لإسرائيل). غير أنه قال أيضاً: (أعطيكَ نوراً للأمم لكي تكون خلاصي حتى أطراف الأرض)».

فقال الكاتب: «أليس تجديفاً هذا؟».

قلت: «بل هو قول أبي».

وحينئذ ذهب. ومعه ذهب كثيرون من الذين أُعجبوا بأفكاره. عدد كبير جداً. ومن جديد كنت وحدي مع أتباعي.

twitter @baghdad_library

ـ 36 ـ

حين تطاولت الظلال في الفناء الكبير مع انخفاض الشمس، كانت أصداء ما دار بين الكاتب وبيني لا تزال تتردد هناك. وإذْ كنت أقدر حينئذٍ على الكلام دون أن يجادلني أحد، فقد كنت مهيئاً لأنَ أقول كل ما أفكر فيه. وإذ رأيت أن قضية أبي لن تكون لها الغلبة ما لم أُعِدُّ العدّة لمقارعة قوى هذا الهيكل، وجدران فكرهم السميكة، فقد كان عليَّ أن أتكلم بأعظم كلمات يمكن أن أجدها وأشدّها قوة. والحقّ أني سمعت صوت الرب وهو يطلع مني دون أفكاري الضالة.

كان بعض الفرّيسيين لا يزالون بيننا، وبدأت بالقول: «في موضع موسى جلس الشيوخ، والهيكل في أورشليم عرشهم. فكلّ ما قالوا لكم أن تحفظوه، فاحفظوه. ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا. فإنهم يحزمون أحمالاً ثقيلة عسيرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم. بل يحبّون المجالس الأولى في المجامع والمُتَّكَأ الأول في الولائم».

وللوقت راح الفرّيسيون يتململون. وبدأ بعضهم يذهب. غير أن قلّة، وكأنها ذات حصانة ومنعة، بقيت لتتجسس ما أقوله أيضاً. ولذا سخرت منهم. وتكلمت بصوتهم، كما لو كنت فرّيسياً مثلهم. قلت لهم: «انظروا إلي، ألست مزدهراً؟» ثم قلت لهم بصوتي: «هل أحدٌ فيكم يأسى على الأصابع المنحنية للعجوز التي تطرز أهداب شال صلاتكم؟».

وبدأ الفرّيسيون الوقحون يطلقون صيحات الاستهزاء والاستهجان. أما الجبناء منهم فاختاروا الذهاب. غير أني رأيت أيضاً وجوه أولئك الذين فقدوا بيوتهم بسبب احتيال الآخرين. وسألت الفرّيسيين: «لماذا لم تطعموا

أبناء الأرملة بدل أن تأخذوا بيتها؟ يا عبيد مامون! إذ تحلفون بذهب الهيكل، فإنكم تصبحون مدينين للرب. أيها الجهّال والعميان! تُعَشِّرون النعنع والشِّبث والكمّون وتتركون أثقل الناموس، الحقّ والرحمة والإيمان. تُصَفّون عن البعوضة وتبلعون الجمل. تَنَقُّون خارج الكأس وتتركون الداخل مملوءاً بالابتزاز والإسراف. تشبهون قبوراً مبيّضة، تظهر من خارج جميلة، وهي من داخل مملوءة عظام أموات. تبنون قبور الأنبياء، وأنتم أبناء قتلة الأنبياء».

لقد أعطاني الرب هذه الكلمات، وقدرت أخيراً أن أتكلم بصوت يوحنا المعمدان الشجاع. كنت حقّاً نسيبه. قلت لهم: «ها أنا أرسل إليكم أنبياء، وحكماء. فمنهم تقتلون ومنهم تصلبون؛ ومنهم تطردون من مدينة إلى مدينة. لكي يأتي عليكم كلّ دم زكي سُفِك على الأرض إلى هذا اليوم».

«يا أورشليم، يا أورشليم! يا راجمة المُرْسَلين إليها!».

ووقعت كلماتي عليهم. غير أن قلبي كان أثقل من الضربات التي كلتها لكبريائهم. لأن كلماتي لم تكن كاذبة. كنت أعلم أن هؤلاء شعبي وأن هذا هيكلي، ولذا بكيتُ إسرائيل.

ورأيت أن الوقت قد حان لأمضي. فالفرّيسيون قد استدعوا حرّاس الهيكل.

غير أن الجمع الذي كان يحيط بي أثارته كلماتي. وجماعتي كانت مستعدة لحمايتي حتى إنهم كانوا مثل عاصفة من رمل يندفع ويدور، عاصفة تفقأ عين كل من يعترض طريقي. وكان بعض الحراس يحملون حجارة، لكن أحداً لم يقذفني بها. وأحداً لم يلمس أطراف ثوبي. لم تأت ساعتي بعد. كان الحرّاس يُقْدِمُون ويحجمون، يُقْدِمُون ويحجمون، وعيناي تقولان لهم ألا يلمسوا أطراف ثوبي.

هكذا خرجت من الهيكل في ذلك اليوم الأول.

twitter @baghdad_library

ـ 37 ـ

ما إن أصبحنا خارج الأسوار حتى أخذ القسم الأكبر من الجمع يصعدون معي جبل الزيتون. وكنّا فرحين مبتهجين. وحدي كنت أشعر بالظلام تحت الفرح والابتهاج.

وتقدّم إليّ التلاميذ على انفراد قائلين: «متى تكون هذه الأمور العظيمة؟ وهل نقوم في نهاية العالم؟»

قلت لهم: «لا تأتي نهاية العالم إلا حين لا أعود بينكم».

وحين قلت هذا شعرت بألمهم، وطفر من عيني الدمع. فقد رأيت أن حبّهم لي يفوق عدم حبّهم؛ وشعرت من جديد بالحاجة إلى مشاورتهم، فكلّمتهم عن الرؤى التي رأيت في حلمي.

قلت لهم: «سوف تسمعون بحروب وأخبار حروب. تقوم أمّة على أمّة ومملكة على مملكة. وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل. ولكن هذه كلّها مبتدأ الأوجاع. وسوف يجمعونكم ليقتلونكم. وتكونون مُبْغَضين من جميع الأمم لأجل اسمي. ويكثر الإثم. وتنزل محبة الذهب بكثيرين. ولكن الذين يصبرون إلى المنتهى فهؤلاء يخلصون. وتكرزون ببشارة **الملكوت** هذه لجميع الأمم».

وفي تلك اللحظة، وأنا محاطٌ بجماعتي، الذين اهتزوا وصرخوا لسماعهم هذه الكلمات، رحت أفكر بمُسَخِّري **الشيطان** وأتباعه. أكان ذلك تحذيراً من الرب؟ فهؤلاء الأتباع أيضاً يقومون على الأرض، باسمي، ويكونون مسلحين بذخيرة معجزات صغيرة. وكلّ يدّعي أنه أنا وقد عدت. خدعٌ لا قرار لها ترقد أمامنا!

وقلت: «إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هناك، فلا تصدقوا. لأنه سيقوم أنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب. فإن قالوا لكم ها هو في البريّة، فلا تخرجوا. ها هو في المخادع، فلا تصدقوا. لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلىالمغارب، هكذا يكون أيضاً مجيء **ابن الإنسان**. تظلم الشمس؛ والقمر لا يعطي ضوءه؛ والنجوم تسقط من السماء. وقوّات السماء تتزعزع. وحينئذ تظهر علامة **ابن الإنسان** فيبصره الجميع آتياً على سحاب السماء ببوق عظيم الصوت. الحقّ أقول لكم، لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كلّه. السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول. اسهروا، إذاً، لأنكم لا تعلمون في أيّة ساعة يأتي ربكم. واعلموا هذا أنه لو عرف ربّ البيت في أيّ هزيع يأتي السارق، لَسَهرَ ولم يَدَعْ بيته يُنْقَب. لذلك كونوا أنتم أيضاً مستعدين. لأنه في ساعة لا تظنون يأتي **ابن الإنسان**.

«وسيقول: (رِثوا **الملكوت**. جعت فأطعمتموني؛ عطشت فسقيتموني؛ كنت غريباً فآويتموني؛ عرياناً فكسوتموني؛ مريضاً فزرتموني؛ محبوساً فأتيتم إليّ). الحقّ أقول لكم، كل ما فعلتموه بأحد أخوتي، فبي فعلتم. وأولئك الذين لم يفعلوا يمضون إلى عذاب أبدي. أما الأبرار فإلى حياة أبدية».

وهتفوا هتافاً عظيماً، كأن كلّ واحد منهم متيقن أنه بين الأبرار. وبدا أنهم واثقون أن الأُوصَنَّا التي يطلقها كثيرون تكفي لإتمام عمل الله ونيل حياة أبدية. كيف لهؤلاء أن يجدوا سبيلهم إلى الرب؟

وما كنت لأفسد ثقتهم. فكلماتي كانت قوية. وكان عليّ أن أُكْرِمُهم. وإذا ما كانت هذه الكلمات تدين بقوتها لبلاغة الرب، فقد كنت أيضاً رسولها. ويا لها من رسالة عظيمة وقديرة.

twitter @baghdad_library

- 38 -

في تلك الليلة صمْتُ. شعب أورشليم الذي حيّاني في الطريق دعاني ملكاً، وما كانوا يعلمون أن مملكتي، التي عليَّ أن أجدها، هي في السماء. كانوا يتطلعون إلى ملك يعيد العظمة التي عُرِفَتْ في إسرائيلَ أيام داود الملك.

برودة الفجر كانت منعشةً، فانتعشتُ، وشعرت أني مستعدٌّ من جديد لأن أذهب إلى الهيكل وأجلس تحت شجرة مباركة، وأُعلِّم.

واعترضني الفرّيسيون على الطريق من جبل الزيتون، ومعهم كانت امرأة. قالوا: «يا معلّم، هذه المرأة أُمْسِكَتْ وهي تزني. أُمسكت في ذات الفعل. **والناموس** أوصانا أن مثل هذه تُرجم. فماذا تقول أنت؟»

كنت أعلم أنهم يريدون اتّهامي بالتساهل مع الخطاة. ولذا لم أنظر نحو المرأة ولا نحوهم. وقلت: «لا تزن. كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه». وكانت هذه الكلماتَ للشباب من بينهم، الذين لمع السرور في أعينهم إذ أُتيح لهم أن يحدّقوا بحريّة في هذه المرأة الزانية؛ وكنت أعلم أيضاً أن أفكارهم سرعان ما توفّر لأيديهم الكسولة أشكالاً أخرى من السرور. وفكّرت في نفسي: إن كانت يدك تعثرك، فاقطعها.

لابدّ أن في هذه المرأة أمامي كلّ قذارة قيء **الشيطان**، لأن الفسوق وسيلته الأقوى. ولذا وقف أولئك الفرّيسيون أمامي وكلهم ثقة، متيقنين أني سأجد سبيلاً لأصفح عنها فأقرّ بذلك أنني مستعد أن أتعاطى مع البغايا. غير أني لم أفعل سوى أن انحنيت إلى أسفل ورحت أكتب بإصبعي على الأرض وكأنني لم أسمعهم.

كانت رؤوسهم ممتلئة بضروب التفكير والحساب. وكانوا يعلمون أن الفسق، بالنسبة لإيسيني، يفضي إلى **النار** رأساً. ويعلمون أيضاً كم قرأت في اللفائف عن المحن التي تنتظر المرأة النجسة. فقد قرأوا اللفائف ذاتها في الحقيقة. وتذكرت ما هو مكتوب عن إيزابل في **سفر الملوك الثاني**؛ فإيزابل هذه كانت أميرة. وأُلقيَ بها من كوّة برج مرتفع، وسال من دمها على الحائط، وداستها الخيل والأقدام. وحين رأى الملك ذلك، قال: «ادفنوا هذه الملعونة، لأنها بنت ملك». ولما مضوا ليدفنوها لم يجدوا منها إلاّ الجمجمة والرجلين وكفّي اليدين. فرجعوا وأخبروه، وقال: «إنه كلام الرب: (تأكل الكلاب لحم إيزابل، وتكون جثة إيزابل كَدِمْنَةٍ على وجه الحقل)».

وحينئذٍ، لم أكن لأجرؤ على النظر إلى هذه المرأة التي جلبها الفرّيسيون. إنما بقيتُ أكتب بإصبعي على الأرض. ولأنني لم أكن أعلم ما أكتب، لم أدعهم يرونه.

وهمست لنفسي من **سفر الأمثال**: «شفتا المرأة الأجنبية تقطران عسلاً وحنكها أنعم من الزيت، لكن عاقبتها مرة كالأفسنتين، حادّة كسيف ذي حدّين. قدماها تنحدران إلى الموت، خطواتها تتمسك بالهاوية».

لم أنظر إليها. وجاء بطرس وجلس بجانبي على الأرض، وبسط اللفافة التي يحملها معه لنقرأ منها في وقت الراحة، ولم تكن تفارقه مع أنه لا يكاد يعرف القراءة.

غير أن بطرس كان قريباً مما يجول في فكري، وأشار إلى مقطع بإصبعه البدينة، بقدر اثنين من أصابعي، وهمس بلسان عبراني قديم: «قيلَ: (بسبب امرأة زانية يفتقر المرء إلى رغيف خبز)». وحين أومأتُ له أن يواصل، همس أيضاً: «المرأة الزانية أكلت ومسحت فمها وقالت: ما عَمِلْتُ إثماً».

وبقيت أومئ برأسي لكي لا أسترق نظرةً إلى هذه المرأة. وتلوتُ لنفسي كلمات حزقيال النبي: «أتى بنو بابل أهوليبة الزانية في مضجع الحب، ونجّسوها بزناهم فتنجّست بهم وكشفت عورتها، وأكثرت زناها وعشقت معشوقيهم الذين منيّهم كمنيّ الخيل».

twitter @baghdad_library

وعلى الرغم مني نظرتُ أخيراً إلى المرأة الزانية.

وكان ما خشيته. كانت جميلة. عظام وجهها رقيقة ناعمة، وشعرها منسدل إلى أسفل ظهرها. وقد كحّلت عينيها بمهارة. وبدت لطيفة على الرغم من الجرأة والغباوة المرتسمة على شفتيها.

لقد ملأ مقتي للفسق سنواتي بخواطر الشهوة. وكنت نَهْبَاً لحالاتٍ عنيفة من الغضب المكبوت. غير أني كنت أسمع الآن صوت روحٍ ناعمٍ، أكان ذلك ملاكها وقد جاء يطلب الرحمة؟

ورأيت هذه المرأة في رؤيا وهي تخطر في أبخرة الخطيئة ودخانها، مع غرباء! غير أنها من مخلوقات الله مع ذلك. وقد تكون قريبة من الرب بطرق لا أراها، وإنْ كانت تتمرّغ في أحضان الغرباء. أجل. لعلّها كانت قريبة من الله طيلةَ الوقت حين كانت يدا **الشيطان** تلفّان جسدها. ولعلّ قلبها قد كان كاملاً مع الله وإن كان جسدها قريباً من **الشيطان**.

وهكذا، حين اقترب هؤلاء الفرّيسيون، الذين أبدوا من الصبر والصمت صبر الصيّادين وصمتهم، وسألوني من جديد، قائلين: «موسى في **الناموس** أوصانا أن مثل هذه تُرجم. فماذا تقول أنت؟» نهضت ورحت أتكلم ليس لتلاميذي وحسب بل لحلقة الكتبة والفريسيين أيضاً. وقلت بصوت مرتفع هذه المرّة: «إن كانت يدك تعثرك، فاقطعها». وحين نظروا إليّ، قلت: «خيرٌ لك أن تدخل الحياة الأخرى أَبْتَرَ ولا تأخذك يداك إلى جنهم». وحينئذ رأيت خوفاً في أعينهم. قلت لهم: «إن كانت عينك تعثرك، فاقلعها. خير لك أن تدخل **ملكوت** الله وأنت ترى بعين واحدة ولا تكون لك عينان تنظران ألسنة اللهب. في نار جهنم، الدود الذي يأكل لحمك لا يموت».

وبُهتُّ. شعرت أن اضطرابي تجاه هذه المرأة قد زال، وبكلماتي أنا. فقلت أيضاً: «من كان منكم بلا خطيّة فليرمها أولاً بحجر».

واضطرب الجميع اضطراباً عنيفاً مفاجئاً حتى إني كدت أفقد توازني واضطررت أن أنحني من جديد وأكتب ثانيةً على الأرض كما لو كنت أهتمّ لما يمكن أن تقوله إصبعي للأرض أكثر مما اهتمّ لهم جميعاً.

وسرعان ما بدأ غضبهم يخبو لحظة بعد لحظة. ولم يَطُلْ به الأمر حتى خمد. وكانت ضمائرهم تُبَكِّتُهُم حينئذٍ بسبب أعمالهم الرديّة.

ورأيتهم يذهبون. مضوا واحداً إثر واحد، مبتدئين بأكبرهم. (ولعله صاحب أكبر خطيّة). وكان آخر من غادر فتىً، ربما كان أقربهم إلى البراءة. وبقيت وحدي. فبطرس قد ذهب أيضاً. وحدها المرأة كانت واقفة أمامي.

لم أستطع أن أحمل نفسي على النظر في عينيها، ثم استطعت. وحين نظرت، لم أر عينيها. بل سمعت آية من **نشيد الإنشاد**، وكأنني في حلم يبديه لي **الشيطان**: «دوائر فخذيكِ مثل الحليّ، صنعة يديّ صَنَّاعٍ. سرَّتك كأس مدورة». وقلت لنفسي إنني في حضرة ملائكة **الشيطان**. فقد وجدت شيطاني؛ شيطان غنيّ، شرير، ورجوت أن يخرج مني. وكانت ملائكة **الشيطان** هذه قديرة جداً وعلمت أن عليّ أن أحترس من حسن هذه المرأة.

ولذا اخترت أن أكلمها بكلام حزقيال النبي، قلت لها: «لأجل خطيئتك. مكتوبٌ: (ها أنذا أهيّج عليكِ عشاقك، فيأتون عليك بمركبات وعجلات، ويعاملونك بالسخط؛ يقطعون أنفك وأذنيك وتؤكل بقيتك بالنار. وينزعون عنك ثيابك ويأخذون أدوات زينتك. وأُبَطِّلُ رذيلتك عنك وزناك من أرض مصر، فلا تذكرين مِصْرَ بَعْدُ)».

وبلطفٍ قالت هذه الزانية، بعينيها القرمزيتين بلون الغسق: «لا أريد أن أفقد أنفي».

فقلت لها: «يا امرأة، أين هم أولئك المشتكون عليك؟ أما دانك أحدٌ؟».

فقالت، وكان صوتها محتشماً: «لا أحد هنا ليدينني، يا سيّد».

فقلت: «ولا أنا أدينك. اذهبي!».

لكن ذلك لم يكن كافياً. فجميع آثار زنى هذه المرأة كانت باقية في داخلها. فقلت: «أين تذهبين؟ أليس أيضاً إلى الفسق مع غرباء؟»

وأجابت: «إن كنت لا تدينني، فلا تصدر الحكم. لا حياة من دون الجسد».

twitter @baghdad_library

كانت مزهـوّة. وكـانت قويـة. ورأيـت أنهـا قـد اقـترنت بقـوى غضـب **الشيطان** السبع وذرّيتها؛ الشياطين السبعة. فكان علـي أن أحـاول إخـراج هذه القوى والشياطين. الحقّ أنهـا حـين خرجـت، كـان ذلـك واحـداً إثـر واحد، دون أن تعكّر الروح الطيب بيننـا. بعضهـا مـاكر، وبعضهـا فاسـق، وأكثر من واحد شنيع. سبع قوى، سبعة شياطين.

القوة الأولى كانت **الظلمة** وشيطانها الغـدر. والحـقّ أنـني أدركـت وأنـا أسميها أنني قد تعلمت من **الشيطان** أكثر مما أراد أن يقول لي. فكنت أعلـم أن القوة الثانية هي **الرغبة** وشيطانها الافتخار. والثالثة **الجهل**، مع شهية هائلة للحم الخنزير، شيطان الشراهة. والرابعة **حب الموت** وشيطانها ليـس سوى شهوة أكل الغير. ذلك أن معرفتنا بالموت لا تكون قريبة إلينـا في أيـة لحظة كما تكون في اللحظة التي نلتهم بها إنساناً مثلنا. أما القوة الخامسة فهي **الملك المطلق** وشيطانها يلوّث الأرواح وينجّسها؛ حتى إن الروح الطيبة التي حلّـت بهـذه المـرأة وبـي ارتجّـت حـين خـرج هـذا الشـيطان. والقـوة السادسة هي **فـرط الحكمـة**. ولـدى شـيطانها الرغبـة بـأن يسـلب النفـوس ويسرقها. ومن بين هذه القوى جميعاً، كانت القوة الأخـيرة هـي الأرهـب. وهي **حكمة الغيظ**؛ وشيطانها شهوة تخريب المدن. تلك هي القـوى السـبع وشياطينها التي أخرجتُ من هذه المـرأة. وحينئـذ قلـت لهـا: «اذهـبي ولا تُخطِئي أيضاً». فذهبتْ.

وعلمتُ بعدئذ أن اسمها مريم من مجدل في طبرية، المدينـة الـتي مـات فيها كثير من اليهود في حرب مع الرومان. وكانت عظامهم ترقد الآن تحت قواعد الأبنية التي شادها المنتصرون. وكانت هذه المرأة مريم المجدلية تزني على تربة شهدائنا. غير أني لم أندم على ما فعلت. فقد كان نصفها لطيفاً، وهو نصف ينتمي إلى الله. وما كنت أعلم حينئذٍ أنـني سـأراها مـن جديـد. غير أني رأيتها.

- 39 -

فيما كنت أُكْمِل طريقي في شارع هيروديا صباح هذا اليوم الثاني، كنت أفكّر بهذا الشارع الذي سُمِّيَ باسم زوجة هيرودس أنتيباس. ومن ينسى أنها هي التي أمرت بقتل يوحنا المعمدان؟ ومع ذلك فقد أُطْلِقَ اسمها الملعون، هيروديا، على الجادّة المفضية إلى بوابة الهيكل الكبيرة.

وحينئذٍ اقترب مني رجل أعمى وبادرني الكلام. قال إنه أعمى منذ ولادته. ولم يعرف أياً من مسرّات الإبصار التي يعرفها الأطفال. وسألني واحد من التلاميذ: «يا معلّم، أية خطيئة أخطأ أبوا هذا الرجل حتى وُلِدَ أعمى؟»

فأجبته دون تردد: «لقد عمي هذا الرجل لكي تظهر أعمال الله له ما إن يبصر. وأنا أشفيه».

غير أني حين نظرت إلى عيني هذا الأعمى لم أر شيئاً هناك. لم يكن حتى عينان على جانبي أنفه، بل حفرتان تحت حاجبيه. وقلت **لأبي**: «أؤمن، فَأَعِنْ عدم إيماني».

وتفلتُ على الأرض وصنعت من التُّفل طيناً وطليت به عيني الأعمى. وقلت: «اذهب. اغتسل في بركة سِلْوَام»، وهي بركة إلى جانب الطريق.

وراح يتلمس طريقه إلى البركة وهو ينقر بعصاه. وحين عاد، كان بصيراً. وسمعته يكلم جيرانه، وقال هؤلاء: «ألست الذي كان يجلس ويستعطي؟».

آخرون قالوا: «هذا هو».

وحين سألوه كيف انفتحت عيناك، سمعته يقول لهم: «إنسانٌ يُقال له يسوع صنع طيناً وطلى عيني، وقال لي اذهب واغتسل. فمضيت واغتسلت، فأبصرت».

twitter @baghdad_library

فقالوا له: «أين يسوع هذا؟»

قال: «لا أعلم»

وسأله فرّيسي في الطريق كيف أبصر، فأخبره الرجل بقصته من جديد.

فقال قوم من الفرّيسيين إنه لم يكن أعمى منذ الولادة. وأرسلوا خلف أبويه، وكان هذان مضطربين خائفين؛ وقالا لهم: «نعلم أن هذا ابننا وأنه ولد أعمى. وأما كيف يبصر الآن أو من فتح عينيه، فلا نعلم». ثم قالا: «ابننا كامل السنّ. اسألوه. فهو يتكلم عن نفسه».

فدعا الفرّيسيون ثانيةً الإنسان الذي كان أعمى وقالوا: «من وضع الطين على عينيك هو خاطئ».

فأجاب الرجل: «أخاطئ هو، لست أعلم. إنما أعلم أني كنت أعمى والآن أبصر».

فقالوا له أيضاً: «كيف فتح عينيك؟».

أجابهم: «قد قلت لكم ولم تسمعوا. لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً؟ ألعلكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟».

فقالوا: «نحن تلاميذ موسى. أما يسوع فما نعلم من أين هو».

وفي كلّ لحظة كان يرى فيها هذا الإنسان العالم على حقيقته، كان يصير أجرأ. وكانت بَرَكَةٌ أنني أعطيت البصر لمثل هذا الإنسان. فقد قال لهم حينئذٍ: «إن في هذا عجباً أنكم لستم تعلمون من أين يسوع هذا، وقد فتح عينيّ. لو لم يكن هذا من الله، هل كان يقدر أن يفعل هذا؟».

فشتمه الفرّيسيون ولكموه وقالوا له: «في الخطايا وُلدتَ، وأنت تعلّمنا؟». وأخرجوه خارجاً.

وحين أتى به التلاميذ إليّ، قلت له: «لم آت إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون وحسب بل أيضاً لأعلّم من يزعمون البصر أنهم عميٌ لا يبصرون».

وقد قلت ذلك بغضب أكبر من الغضب الذي قلبت به موائد الصيارفة؛ أجل، أكبر. فهذا الغضب لم يكن في يديّ أو رجليّ؛ لم يكن في صوتي؛

بل شقّ طريقه إلى أمداء قلبي الهادئة. وسمع أحد الفرّيسيين كلامي الذي قلته، فتقدم وسألني بكثير من الهزء: «أأنا أعمى؟» فأجبته: «في خطيئتك أنت أعمى».

ورأى الرجل نفسه أنه ذو شأن، وقال: «يسوع هذا به شيطان وهو مجنون». وقال آخرون: «كيف يقدر شيطان أن يفتح عينيّ رجل أعمى منذ ولادته؟».

وكان بينهم انشقاق.

وحين تقدّمت في شارع هيروديا، جاء فرّيسي عجوز بوجهٍ لطيف، وكثير من أمارات الحكمة في ثنية أنفه وفمه، وسألني إن كان من الممكن لنا أن نتكلم. قال: «كثيرون منا، نحن اليهود المؤمنون، يشعرون أنك أحسنت صنعاً حين قلبتَ موائد الصيارفة. فعملك هذا هو جزية لله. لكن قلة قليلة هم الذين يرغبون بتوبيخ الطمع». وقال أيضاً إنه يودّ لو أفهم شيئاً لم يفهمه في حداثته. وحين أومأت برأسي، راح يتكلم. والحقّ أني كنت أرغب أن تهدأ نفسي قبل أن أدخل الهيكل.

قال: «كريمٌ هو الرب، وقد خلقنا لنكون كمثاله. ومع أننا على صورته، نحن نعلم أننا لا نملك قدرته».

وبدا لي هذا الشيخ جديراً بالاحترام. فقلت: «قد يكون الإنسان مخلوقاً على صورة الله، ولكن ليس بيد الإنسان معجزات».

فقال: «أجل، فماذا عن إنسان بيده معجزات؟ أيكون أقرب إلى الله؟ أم أن **الشيطان** يضلله؟ **فالشيطان** قد يستخدم قدرته في فعل الخير؛ فذلك من ضمن تحايله. وقد تكون لديه موهبة أن يفتح أعين العميان. وبذا يمكن أن يضلّك أكثر، يا يسوع النبيل، فيما يختصّ بمصدر معجزاتك. وبذا يقدر أيضاً أن يزيد من الضلالات التي تأتي بها إلى هؤلاء اليهود الفقراء».

قلت له: «بارعٌ ما تقوله حتى إنك تقدر أن تقوله عن الحيّة».

فتنهد وقال: «أعلم أن لديك قلباً طيباً. فهو يبين من عينيك. وما أردت سوى أن أحذرك. فهناك قلة يقولون إنك **ابن الله**». وخفض بصره وهو

twitter @baghdad_library

يتكلم بمثل هذا التجديف. ثم تكلم ثانية بعد ذلك فقال: «يزعم البعض أنك أنت الذي تقول هذا. وأرجو ألا ينالك من ذلك سوء. فإذا ما التقيت رئيس الكهنة قيافا، لا تقل له أي شيء من هذا القبيل. لأنه إذا سمع من فمك مثل هذا الكلام، فسيكون ذلك انتهاكاً وتدنيساً ليس لهما حدّ. أما إن لم يسمع ذلك من فمك بل من فم الآخرين وحسب، فسوف يفضل ألا يعير الأمر انتباهاً. لأنه لا يكون مضطراً حينئذٍ أن يعلن عن وجود تدنيس خطير. وبذا تكون سلامتك».

وابتسمت له، غير أني لم أكن أعلم إن كنت سأعمل بنصيحته.

- 40 -

في هذا اليوم الثاني من أيامي في الهيكل، تضاعفتْ أعدادُ من جاؤوا لكي يسمعوني. وقد وقفوا في الفناء وراحوا يصلّون بقوةٍ وحميّةٍ وبأصوات مرتفعة لا تستكين. ولهذا كان ضرورياً أن أكلمهم بهذا الشأن، لأنهم إن لم يكونوا يعلمون كيف يُسْلَكُ في بيت الرب، فلن يعلموا ذلك حين يكونون وحدهم.

قلت لهم: «لا تكونوا كالمُرائين، الذي يحبّون أن يصلّوا قائمين في المجامع. بل لتكن صلاتكم في الخفاء. ولا تكرروا الكلام. لأن ذلك يميت النفس. فلا تخطئوا بالإفراط في الصلاة؛ لأن **أباكم** يعلم ما تحتاجون إليه».

غير أنهم ما كانوا يريدون أن يسمعوا سوى عجائب؛ عن بشائر السماء التي تُخْطِرُهُم بالنهاية. وما إن هدؤوا حتى رحت أخبرهم أن علاماتٍ تكون في الشمس، والقمر، والنجوم، وأن ارتفاعاً يكون على الأرض وفي البحر: «الناس يُغْشَى عليهم من خوف. وإذا ما احتملوا، حينئذٍ يبصرون **ابن الإنسان** آتياً في سحابة بقوة ومجد. وحينئذ ترفعون رؤوسكم، لأن نجاتكم تقترب». وقلت لنفسي: «آه، يا رب، ليكن كلامي كلام صدق».

وشعرت كما لو أنني قد صرخت له وبقيت وحدي. أما كلماتي فكان عليها أن تفعل ما بوسعها لكي تبلغ أفئدتهم. ذلك أن كلّ كلمة قد تصبح قيّمة ونفيسة مثل خشب المركب الذي يبقي الإنسان عائماً في بحر مائج.

وعلى بُعْدٍ رأيت كاهناً يكلم واحداً من رؤساء حرس الهيكل. وقال واحدٌ من الكهنة الأقلّ شأناً كان واقفاً بجانبي: «قيل في **الكتاب** إنه من بيت لحم يأتي **المسيح**. فكيف يمكن، إذاً، أن يأتي من الناصرة؟».

twitter @baghdad_library

وقال آخر: «لا، يسوع من بيت لحم. في أيّ مكان تفتش عن طبيعة الإنسان إن لم يكن في الأرض التي ولد فيها؟»

فقال الكاهن: «هو من الجليل. لا يمكن أن يقوم مسيح من الجليل». وأومأ برأسه إيماءة حكمة. إيماءة العارف. فمع أنه لا يعرف شيئاً عن الله، يمكن له أن يقول من أين يقوم المسيح ومن أين لا يقوم.

وفيما كنت أسمع هذا، قلت لنفسي: «صاحب العقل الصغير يبين عن قوقعة صلبة يحمي بها أفكاره الصغيرة». أما الغضب الذي كان قد بلغ وسط قلبي بعد أن أساء الفرّيسيون معاملة الرجل الأعمى فقد خرج الآن في الكلمات التي رحت أصرخ بها. قلت لهم: «آباؤكم قتلوا الأنبياء. وها أنتم تبنون قبور الأنبياء. وسوف يرسل الله إليكم أنبياء جدداً، فتجلدونهم وتقتلونهم. وتكون هذه مذبحة عظيمة حتى إن كلّ دمٍ نبيٍ سُفِكَ على الأرض منذ تأسيس العالم يأتي على هذا الجيل».

وحين ارتد الكاهن إلى الوراء خطوة، تقدمت وقلت: «كل هذا الذي جرى من دم هابيل إلى دم زكريا الذي قُتل بين المذبح والهيكل».

ربما كان الكاهن الواقف أمامي صغير العقل وصغير الجسم، غير أنه كان متيقناً كعقرب مما يعرفه، فراح يوبخني لأني كنت أشفي في السبت.

ولأن صبري كان قد نفد فيما يختصّ بهذا الأمر، قلت له: «ما هو فيك ليس حبّ الله».

كم تمنيت أن أسدد ضربة لتقى كلّ يهودي صارم في ممارسة الطقوس وضيق العقل. حتى إنني كنت قد صلّيت لكي يجدوا بعض الأرواح الطيبة كالتي عند اليهود الآخرين ممن عملت معهم في بناء البيوت في الناصرة. أولئك كانوا أندادي؛ أولئك كانوا أصدقائي.

قلت لهم: «تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرجون، الذي فعلوا الصالحات والذين فعلوا السيئات. وعندها تكون دينونتي على جميع آبائكم». وانتظرت قليلاً ثم قلت من جديد: «على جميع آبائكم».

وبهذه الكلمات الأخيرة أثرتُ نقمةً أكبر مما أثرت بأيّ شيء آخر قلته أو فعلته في اليوم الأول. وراحت هذه النقمة تتأجج في صدور هؤلاء الكهنة والفرّيسيين. فهم يحسبون أنهم في حمايةٍ في السماء على الرغم من أعمالهم الرديّة وما يعانونه في نفوسهم من خطايا كثيرة واشتهاء وراء **مامون**. فأسلافهم الأماجد يتوسّطون لهم في السماء. وهم يؤمنون بأسلافهم قبل أن يؤمنوا بالله، وأكثر من إيمانهم به. إيمانهم الحقّ هو أن أولئك القدماء من عوائلهم يعبرون بهم الهوّة التي تفصلهم عن الرب. وها أنا أنقل الحكم والإدانة إلى أفعال آبائهم القديمة الشريرة. ولذا راحوا يسدّون آذانهم. فقد كان عليهم أن يقوا أنفسهم من سماع **الشيطان**. ووقفتْ الدموع في عيني مثل خُفراء في نوبة حراسة. كنت أعلم أن عليّة شعبي، ورؤساء كهنتهم، لا يرون فيَّ سوى رسول **للشيطان**. ولم أصدقْ كم كان هذا الجرح غائراً في أعماقي؛ كنت بغيضاً لدى شيوخ شعبي. أجل، بغيضاً كخنازير الجدريين.

غضبتهم كانت عظيمة حتى إن نور النهار صار أحمر أمام عيني. وكان الأمر كما لو أن نفوسهم كانت في **النار** من قبل. غير أني لم أُقِمْ أيّ سلام مع غضبتهم. ولم أقدر أن أمسك بلساني. قلت لهم: «اعرفوا الحقّ. الحقّ وحده يحرركم». وكان هؤلاء الفرّيسيون متفاخرين، ومن أعالي اعتدادهم بأنفسهم كانوا يبايعون أنفسهم ويجلّونها. فقالوا: «إننا ذريّة إبراهيم. ولم نُستَعْبَد لأحد قط. كيف تقول إنكم تصيرون أحراراً؟»

فقلت لهم: «إنكم ذريّة إبراهيم، لكنكم تطلبون أن تقتلوني. وقد كلمتكم بالحقّ الذي سمعته من الله».

فأجابوا: «نحن أيضاً لنا أب واحد، وهو الله».

فقلت لهم: «أنتم من أب هو **الشيطان**».

هل كنت أُعِدُّ فرناً لأذيب الحديد؟ أبداً لم أر الفرّيسيين بمثل هذا الهياج. قالوا: «الآن عَلِمْنا من أين أتيت. أتجرؤ أن تقول إنك أعظم من أبينا إبراهيم؟».

twitter @baghdad_library

قلت لهم: «أبوكم إبراهيم يتهلل بأن يرى يومي، فهو يعرفني. قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن».

ورفعوا حجارةً ليرجموني. ما عدتُ أقدر أن أجتاز في وسطهم كما في اليوم الأول. فحينئذٍ كان بعضهم مستعداً أن يرميني بصخرة، لكنهم لم يقدروا. واجتزت بين صفوفهم. أما الآن فقد تجرأ واحد، وتلاه آخر. وبعد الحجر الأول، أحجار كثيرة. فمشيت خلف واحد من التلاميذ، وهو خلف آخرين، حتى انسللنا. ولم يسارعوا في السعي خلفنا مع أن نيران غيظهم كانت ذات أوار.

- 41 -

رحت أتساءل أين يمكن أن أمكث. واختار التلاميذ بيت سمعان الأبرص في بيت عَنْيَا. فأحدٌ لن يخطر له أن يبحث عني هناك. غير أن خبر وجودي عنده سرعان ما انتشر. وفيما نحن متكئون إلى المائدة، جاءت امرأةٌ بهديةٍ. قارورة طيبِ ناردين خالص، دهنت بها شعري. وكانت هذه القارورة كثيرة الثمن، أكثر من ثلاثمائة دِينار، وهو مبلغ لا يكسبه إنسان فقير بعمل أشهر، بل سنوات.

هذه القارورة سُكِبَتْ على رأسي. ودخل شذاها أذني كما دخل أنفي، وسمعت **نشيد الإنشاد**. جاء أولاً صوت **العروس**. قالت: «ما دام الملك في مجلسه، أفاحَ نارديني رائحته». غير أن بعض التلاميذ اغتاظوا. حتى إن أحدهم قال: «لماذا لا يبيع معلّمنا هذا الطيب ويعطي ثمنه للفقراء؟ هذا إتلاف». وكان يهوذا هو الذي قال ذلك.

نظرت إليه بانزعاج. كان عابساً مكفهر الوجه من الغضب وأشاح بناظريه بعيداً. وكان اسم المرأة التي جاءت بالهدية مريم (كاسم أمي، وكاسم مريم المجدلية، ومريم أخت لعازر)، أجل، مريم أخرى، لن أنسى اسمها، لأنها دهنت قدمي بما تبقى من الناردين ومسحت قدميّ بشعرها. وشعرتُ بشيء من الطمأنينة والسلام وهي تبذل مثل هذا الإجلال والتقدير لكاحليَّ وأباخسي (كما لو كانت تبارك ما قطعت من أميال). وجاءتني آيات من لفافة **نشيد الإنشاد**: «قومي، يا حبيبتي، وتعالي. لأن الشتاء قد مضى، والمطر مرّ وزال، الزهور ظهرت في الأرض وبلغ أوان القَضْبِ وصوت اليمامة سُمع في أرضنا». وامتلأ البيت من رائحة الطيب.

twitter @baghdad_library

وحينئذٍ سأل يهوذا: «لماذا لم يُبَعْ هذا الطيب؟»

وراح آخرون يشتكون ويتذمرون. لم يتكلموا عليَّ، بل هاجموا هدية المرأة. قلت لهم: «لماذا تزعجونها؟ فإنها قد عملت بي عملاً حسناً». وقلت ليهوذا أكثر من هذا. قلت له: «الفقراء معكم في كلّ حين. ومتى أردتم، تقدرون أن تعملوا بهم خيراً. وأما أنا فلست معكم في كلّ حين».

وحينئذٍ كنت في حيرة. فالحبّ الذي جاء من يديْ هذه المرأة منحني لحظة سعادة؛ وفي تلك اللحظة لم أشعر كما يشعر صديق للفقراء. ألست أنا فقيراً في الحقيقة؟ فأنا أعيش في عوز إلى النَّفَس والنَّسْمَةِ، أوّل رفيق للمرء حين يكون ثمة خوف من الموت. وعطر الناردين كان بلسماً للعزلة في جوفي.

لأوّل مرّة أعلم كيف يشعر الأغنياء، وأفهم حاجتهم للتباهي. فهديةٌ من مقامهم هي بالنسبة لهم بمقام دمهم. وبذا فهمت أيضاً أن طمعهم دواء ضدَ ما ينذر بالشرّ والمصائب. لقد قلت إن مرور عقدة من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى **ملكوت السماء**، غير أني من زاوية فمي الأخرى، ولو للحظة، كنت أحتقر الفقراء.

هل تكلمتَ بلسان منقسم عساني أستميل الجميع؟ عطر الناردين كان في أنفي، وفي خيالي صورة هياكل جميلة. هياكل مقامة لأجلي. ورأيت كم أريد أن أكون كلّ شيء عند كلّ الناس. فيأخذ كلّ منهم حكمةً منفصلة من لدني. والحقّ أنني فكّرت أن طرقاً كثيرة تؤدي إلى الرب.

غير أني رأيت حينئذ أن يهوذا قد ذهب. إن كان يحبني، فهو لم يعد يحبني بعد. وكان قد حذّرني. وذهب في تلك الليلة ذاتها حيث كان كثيرون يتمشون جيئة وذهاباً على الطريق بين بيت عنيا وأورشليم. وجميعهم يتساءلون عن الأمور الآتية.

وجاء التلاميذ وقالوا إن يهوذا كان يتكلم عني بسوء في الشارع. وقد قال إني مستعد لأن أغدر بالفقراء وأخونهم. وإني مثل الآخرين، لم أبق صادقاً مع قناعاتي. وكنت مضطراً أن أغفر ليهوذا. ألم أحتقر الفقراء حقاً؟ لقد

احتقرتهم ولو أن الكلام كان للحظة، ولو للحظة. فقد كنت مقتنعاً بما قلته. ويكفي الحقيقة أن تدوم بقدر ومضة برق لكي تكون أعظم حقيقة بين الحقائق.

twitter @baghdad_library

ـ 42 ـ

كنت قد أُنْبِئْتُ في حلمي أن أول يوم من **الفصح** يكون يومي الثالث في أورشليم. وأن الرومان يضعون أيديهم عليَّ في ذلك اليوم. وكانت أطرافي ثقيلة صباح هذا اليوم الثالث. لم أستطع أن أنهض. عيناي توجّعتا من كلّ ما أبصرته، وأذناي مما سمعته؛ وفي صدري كان حشد أثيم لأرواح مدنسة. جموعٌ كانت تنتظر لكي ترافقني إلى الهيكل، أكثر عدداً مما كان في اليوم الأول، أو الثاني. ولم أكن مستعداً. وسألت نفسي إن لم تكن مشيئة الله لي أن أترك هذه المدينة وأذهب لأكرز على بحر الجليل من جديد. يا لجمال الشمس على مياه بحر الجليل.

كم مجادلة دارت في الليل بين كهنة الهيكل؟ هل ينوون أن يحبسوني؟ كان اليوم **عيد الفصح**، ولذا سيتردد هؤلاء الكهنة قبل أن يتورطوا في أيّ فعل قد يسبب شغباً بين الشعب. فشغب اليهود يُغْضِبُ الرومان. وسيجد الكهنة أنفسهم في وضع لا يحسدهم عليه أحد بسبب فشلهم في المحافظة على الأمن والسلام في المدينة.

كنت متيقناً أنهم لا يدرون ما يفعلون. غير أني، أنا أيضاً، لم أكن أدري ما أفعل. وفي هذا الصباح الثالث، لم أستطع أن أُنْهِضَ نفسي لأذهب إلى الهيكل. وإذا كان التبصّر في العواقب يأتينا من الله والجبانة من **الشيطان**، فإن الخط الفاصل بينهما لا يمكن تمييزه على الدوام. لا يمكن ذلك لإنسان. وفي هذا الصباح لم أعد **ابن الله** بل إنساناً وحسب. صوت الله كان خافتاً في أذني؛ وفي قلبي كان خوف رديء.

واجتمع التلاميذ بعد الظهر عند سريري. وقالوا: «أين نمضي ونُعِدُّ كي نأكل الفصح معاً؟»

وقدرت أخيراً أن أبدأ العمل. قلت لهم: «ليذهب اثنان منكم إلى المدينة ويتبعا أول إنسان يريانه حاملاً جرة ماء. يتبعانه إلى البيت حيث يدخل. ويقولان له: (يقول لك المعلّم أين المنزل. فهو يريد أن يأكل الفصح مع تلاميذه). وذلك الإنسان الصالح يريهما علّية كبيرة، مفروشة. وهناك يُعِدّان لنا».

رأيت ذلك بجلاء وكأن الله قد أخبرني به. والحقّ أنَّ تلميذيّ انطلقا ووجدا كما قلت لهما، فأعدّا الفصح. ولمّا كان المساء، جئت في الظلمة إلى البيت ومعي الاثني عشر، وأكلنا.

بقيتُ صامتاً إلى أن أخذت الخبز. وحينئذٍ باركته وكسرته وأعطيت كسرة لكل واحد من أصدقائي. وتذكرت ساعة كسرت الخبز في البريّة وأطعمتْ خَمسة أرغفة خمسمئة إنسان. في تلك الساعة كنت أحيا معجزة حظوة الرب، أما الآن فقلت لهم: «كلوا، هذا هو جسدي». وما قلته كان الحقّ. ففي الموت يعود جسدنا إلى الأرض، ومن تلك الأرض يطلع الحَبّ. وأنا ابن الله. فأكون حاضراً في الحَبّ.

وأخذت الكأس، وشكرت الرب، وسكبت خمرتنا، وتذكرت ليالي أخرى حين كنا نشرب معاً ونشعر أن الجميع واحد، وأن لا شيء مُخَبَّأ إلا ويُعْلَن. والحقّ أنّ الكثير من الأشياء قد استعلن الآن. والخمرة جعلتني أشعر أني قريب من أبي، وتطلعت إليه كما لو أنه ملك عظيم. والحقّ أن خشيتي منه كانت أقل من حبّي؛ بسبب هذه الأنفاس القليلة؛ وشعرت أني قريب من أعماله المديدة. فقد سعى لأن يجلب النظام إلى ما صنع شعبنا من الفوضى. كم عمل بكدّ، وكم غضب من خطايانا حتى أرسلنا في السبي. غير أنه كما شتتنا، فقد لمّنا وأعادنا. أراد أن يغفر لنا كلّ ما قد سلبناه ونهبناه من خليقته. أيمكن الآن أن أخْبِر هؤلاء الاثني عشر على هذه المائدة أن الله سرعان ما يأتي ليخلّصنا؟ لم أستطع أن أمنحهم مثل هذا اليقين. كنت

twitter @baghdad_library

أعلم أننا شعب مشتت خاطئ يفضل أن يُدان لا أن يُخَلَّص. لأننا أشد فراغاً وتفاهة من أن نصدّق أننا سَنُدان.

ومثل جندي مخلّص، قلت لنفسي: «يا رب، أَعِنْ عدم إيماني».

وقلت لهم وأنا أعطيهم ليشربوا: «هذا هو دمي، الذي سُفِكَ من أجلكم ومن أجل كثيرين».

ومن ثم، حين تذوقت حزن العناقيد التي عُصِرَت لتصنع هذا الشراب، قلت لهم: «إني لا أشرب بَعْدُ من نتاج الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه في **ملكوت الله**». بدا **ملكوت الله** قريباً.

واضطرب رسلي. قال واحد منهم: «كيف يقدر نبيٌّ أن يعطي جسده ليُؤكل ودمه ليُشرب؟»

قلت: «إنْ لم تأكلوا جسد **ابن الإنسان** وتشربوا دمه، فليست لكم حياة فيكم. أمّا من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية. ويثبت فيَّ وأنا فيه».

وسمعت همهمةً. أمّا يهوذا فصاح: «هذا الكلام صعب. من يقدر أن يسمعه؟»

وأجبت: «أما اخترتكم؟ ألستم رسلي؟» وقاومتُ ما كنت على وشك أن أقوله بعد ذلك، ومن ثم قلته: «وبينكم أنتم الاثني عشر، أليس واحدٌ شيطاناً؟» قلت ذلك بثقة ويقين. ألم أشعر بحزن الرب الذي لا حدود له؟ قلت: «إن واحداً منكم يسلّمني. ويلٌ له. كان خيراً له لو لم يولد».

ومثل هذا الرجل لا بدّ أن يكون قريباً مني، كخطاياي وتعبي، فقد شعرت بأسى وحزن لهذا الإنسان. إنْ كان سيسلمني، فإن ألمه يكون أعظم من ألمي.

وهذه الأفكار زادت قوتي. فالقوة تأتيني على الدوام حين أكون مفعماً بالحنوّ والشفقة.

وقمت عن العشاء وخلعت ثيابي وأخذت منشفة واتّزرت بها. ثم صببت ماءً في مِغْسَل وابتدأت أغسل أرجل التلاميذ.

وحين جئت إلى بطرس، قال: «لن تغسل رجلي أبداً».

فأجبت: «إن كنت لا أغسَلك، فليس لك معي نصيب».

فقال بطرس: «يا سيّد، ليس رجليَّ فقط، بل أيضاً يديّ ورأسي».

بعض أقدامهم كانت طاهرة، وبعضها كانت منتنة من أزقّة أورشليم. وعلمتُ أيضاً أطرافُ مَنْ كانتْ شجاعة ومَنْ هم المستعدون للفرار. فلمّا غسلت أرجل الاثني عشر جميعاً، قلت لهم: «في الأيام القادمة، ليغسل بعضكم أرجل بعض كما غسلت أرجلكم».

غير أن الفكرة ذاتها ظلت تراودني: «واحدٌ منكم يسلّمني». ولا بدَّ أني قلت هذه الكلمات بصوت مرتفع، لأن سمعان بطرس سألني حينئذ: «يا سيّد، من هو؟»

وأجبته: «هو ذاك الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه».

وبعد ذلك بقليل، غمست اللقمة وأعطيتها ليهوذا الأسخريوطي. ومرَّ كثيرٌ بيننا. وعلى الأخصّ تلك المحادثة التي جرت قبل انطلاقنا إلى أورشليم.

لمعت عينا يهوذا الباهتتان بوهج إيمان كاذب كالذي يبديه المرء حين يرغب في أن يخبئ ما يشعر به. غير أني قلت لنفسي إنه مخلص، على الرغم من كل شيء. بهذا القدر كنت أرغب في أن أثق به. فأنا أدرك كيف يمكن أن يكون لدى الناس إيمان ولا يكونون مؤمنين. ولذا قلت ليهوذا: «ما تعمله، فاعمله بسرعة». ومع أنني كنت أعلم أني أحبه، غير أني لم أكن أعلم أنني أحبّه بهذا القدر. وهذا ما جعلني أقول له ما قلته بحنوّ ورقّة. ولم يفهم أحد من المتكئين ما قلته؛ وظنّ بعضهم أنني أرسله مع بَرَكَةٍ. فقد عانقته. وخرج. كان الليل حالكاً.

كنت مستيقظاً نشطاً وكأنني أستعدّ لأمشي على الماء في بحر الجليل مرة أخرى.

قلت لهم: «وصية جديدة أنا أعطيكم: أن تحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم. بهذا وحده يعرف الجميع أنكم تلاميذي. فأنا أذهب في الحال، وحيث أذهب، لا تقدرون أن تأتوا».

twitter @baghdad_library

قال بطرس: يا سيّد، إلى أين تذهب؟»

وأجبته: «لا تقدر الآن أن تتبعني. إنّما بعد حين تقدر».

فقال بطرس: «يا سيّد، لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن. إني أضع نفسي عنك. وأنا مستعد أن أذهب معك إلى السجن وإلى الموت». كان واثقاً من ذلك كل الثقة. متيقناً أنه لا يمكن أن يخذلني. كذلك أفضل المحاربين يمكن أن يزداد تعلّقه بأعماله حتى إنه يبدأ بالتفكير في أنه كبير بقدر ما يرغب في أن يكون. ولكنه ليس كذلك. فهو يمكن أن يكون أعمى تجاه نفسه. وقلت لبطرس: «اليوم، في هذه الليلة، قبل أن يصيح الديك مرّة، تنكرني ثلاث مرّات».

فقال بطرس بأَكثَرِ تشديدٍ: «لا أنكرك. كائناً ما يكون». وهكذا قال الجميع أيضاً.

وقلت لهم: «أثمة سيوف بيننا؟»

- 43 -

حينئذ لم يأت رد، قلت لهم: «من ليس له سيف فليبع ثوبه ويشتري سيفاً».

واعترفوا حينئذ قائلين: «يا سيّد، هوذا هنا سيفان»، واستلّ اثنان منهم سيفين قصيرين، فأخذ بطرس واحداً.

قلت: «يكفي». غير أني تساءلت إن كان اثنا عشر فيلقاً من الملائكة يكفي.

وسألني توما حينئذ: «يا سيّد، كيف نقدر أن نعرف الطريق؟» كان توما بسيطاً، وكان عليّ أن أعيد الكلام نفسه مرّات لكي يفهمه. فقلت: «أنا هو الطريق، والحق، والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي». لكنّ الأوان قد فات، ولم يكن وحده الذي لا يعرف.

فقد قال فيلُبُّس: «يا سيد، أرنا الآب».

فقلت له: «آمن أني أنا في الآب والآب فيَّ».

ورأيت حينئذٍ كما لم أر من قبل أنهم إن لم يؤمنوا بهذا، فلن يقدروا أن يعملوا أية أعمال. فقلت لهم: «اعلموا فقط أن عليكم أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم».

لم أشعر أبداً أنني أحبّهم كما أحبّهم الآن، أو أنني أكثر إشفاقاً على ضعفهم. فثمة مخاطر كثيرة رابضة تنتظرهم. قلت لهم: «ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب. فكونوا حكماء كالحيّات وبسطاء كالحمام. ولكن احذروا من الناس لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس ويجلدونكم وتُساقون أمام ولاة وملوك من أجلي. فلا تهتموا بما تتكلمون، لأنكم تُعْطَون في تلك

twitter @baghdad_library

الساعة ما تتكلمون به. لأنكم لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم». (وعلى هذا كنت أقدر أن أشهد).

هذه الكلمات جلبت الخوف على كثير منهم. وحينئذٍ، قلة هم الذين كانوا مستعدين لأن يفتشوا عن مزيد من الإيمان بالارتقاء إلى أعلى، وأعلى، ضدَّ هذا الخوف. ولذا قلت أيضاً: «لا تخافوا، يا أحبتي، من الذين يقتلون الجسد؛ بل خافوا بالحريّ من الذي يقدر أن يلقي بكم في جهنم. مِنْهُ خافوا».

لعلّهم قد فهموا الآن ذلك الخوف الذي يقبع أدنى من كلّ خوف. أكانوا يرون أن الموت ليس النهاية بل البدء؟ الأفراح والأتراح الآتية ستفوق كل ما عرفوه من قبل. فهل أكملت ذلك حتى إنهم ما عادوا يشيحون بأنظارهم عن وجه الموت كالراجين بذلك أن يتفادوا حكماً قاسياً؟

كنت أعلم أن كلّ ما قلته لهم هو الحقّ عدا شيئاً واحداً. فقد قلت لهم: «أحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم». غير أن حبّي كان ممتزجاً بالغضب.

ولذا قِلت لهم ما يظلّ حقاً على الدوام: «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا، أن يضع أحدّ نفسه من أجل صديقه. أقول لكم من جديد: أحبّوا بعضكم بعضاً».

كنت أتكلم وكأنني قد تركتهم. فقد كنت واثقاً من ذلك. غير أني كنت واثقاً أيضاً أنني لا أتركهم أبداً. وأنني أكون معهم في الغد.

ونظرت إلى رسلي، كان بعضهم بشعاً، وبعضهم شائه الجسد، بعضهم شائه الأنف، وأيدي أكثرهم متورمة مكسورة، وأرجل غيرهم معقوفة منحنية. غير أنهم لم يكونوا أتباعي وحسب بل أحبّتي. قلت لهم: «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم. إنما يفعلون بكم هذا كلّه من أجل اسمي. فلو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية. وأما الآن فليس لهم عذر في خطيّتهم».

وسمعت هديراً في البريّة. كان بعيداً عن أذني لكنه كان في داخل أذني. غضبة الشيطان كانت رهيبة. فحين لا عذر للفريسيين في خطيتهم، يكون الشيطان قد أضاع حصاده.

وقلت لجماعتي: «تأتي ساعةٌ فيها يظنُّ كل من يقتلكم أنه يقدّم خدمةً لله. وتقوم حروب باسم الله ينتفع بها **الشيطان**».

وشعرتُ بأسىً لأنني قد لا أعيش لأرى تلاميذي في مساء آخر، وكان ضرورياً أن أقول لهم: «لكن حزنكم يتحوّل إلى فرح. لأنكم تعرفون أنفسكم، وتعرفون أنكم أيضاً أبناء **الآب** الحيّ».

أردت أن يكون ذلك هو الحقّ الآن وإلى الأبد، غير أني كنت أعلم أيضاً أن قلب **أبي** كان أثقل بَعُدَ من قلبي في تلك الساعة. وثانيةً، لم أجرؤ أن أتساءل إن كنت قد فشلت في الشطر الأكبر من مهمتي. بل رفعت بصري وصلّيت: «مجّدني، أيها **الآب**، المجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم». ومنحني ذلك أملاً عظيماً ورحت أفكر أنه قد كان معي منذ البدء، وقبل البدء. فلعلّ ذلك أن يهبني قوة في التجارب الآتية.

وقلت: «أيها **الآب**، إن لم أكن بَعْدُ في هذا العالم، فإن رجالي في العالم وقد أعطيتهم **كلمتك**. وها أنذا أصلّي كي تأخذهم في ذاتك، وتحفظهم من شرّ الغير. كما أنك أنت، أيها **الآب**، فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً فينا، ويكونوا **واحداً معنا**. ليؤمن العالم أنك أرسلتني. وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن **واحد**، أنا فيهم وأنت فيّ».

وشعرت بحبّ الله. وكان هذا الحبّ مثل حيوان سماوي الجمال. عيناه توقّدتا في قلبي.

وفيما كانت هذه الصلوات تتردد في صدري، علمت أن عليّ أن أمضي إلى الهيكل ولو كانت هذه الليلة هي ليلة اليوم الثالث. وأن علي أن أمضي وفي قلبي هذه الأسئلة. فإذا ما كانت ثقيلة، علي أن أحملها كما يُحْمَل العبء.

وخرجت.

twitter @baghdad_library

ـ 44 ـ

مـع كلّ خطوة كنت أخطوها كانت رجلاي تصبحان أثقل.

وحـين جئنـا إلى جَثْسَيماني، قلـت للتلاميـذ: «اجلسـوا ههنـا حتـى أصلّي».

وأخذت معي بطرس ويعقوب ويوحنا وابتدأنا نصعـد مرتفعـاً صغـيراً إلى بستان جَثْسَيماني. كانت أطرافي كأنها لواحد آخر وكنت أسير بصعوبة.

قلـت لهـم: «اسـهروا». ولم أكـد أعـرف لمـاذا قلـت لهـم ذلـك. وقلـت لبطرس: «لا تدخل في تجربة».

كانت نفسي حزينة جداً حتى الموت.

وتقدمت إلى حيث لا يروننني، وخررت على الأرض. ورحت أصلّي لكي تعبر هذه الساعة. أردت أن أعيش بلا رعب أو ذعـر. كـان العـرق يتصبـب من جبيني، ثقيلاً، مثل قطرات من الدم. قلت: «يا أبتاه، أَجزْ عـني هـذه الكأس». غير أني كنت أعلم أن كـأس الشـقاء لـن تعـبر؛ وأنَ الحفـرة بـلا قرار. وفجأة خفت من أبي إذ كنت أشفق على نفسي. قلت لـه: «ليكـن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت».

وحين عدت إلى الثلاثة الذين تركتهم خلفي، كانوا نائمين. فقلت: «يـا بطرس، أما قَدِرْتَ أن تسهر ساعة واحـدة؟» ومـن وجهـه علمـت أنـه كـان غارقاً في رعبه الكبير كرعبي. وما الذي يفعلـه إنسـان قـويّ سـاعة جبانتـه سوى أن يغرق في النوم؟ ومن جديد أقسم بطرس أنه مخلص لي، وقـال إنـه سيقف كمـا يقـف الحـارس. فقلـت لـه: «أمّـا الـروح فنشـيط وأمّـا الجسـد فضعيف».

ومضيت أيضاً لأصلّي وحدي في البستان. كانت رائحة الخيانة في الزهور. حتى في الزهور. وحين رجعت إلى الثلاثة، وجدتهم نياماً. ثانية غرقوا في النوم.

قلت لهم: «يكفي. قد أتت الساعة».

وللوقت، فيما أنا أتكلم، أقبل يهوذا. ومعه حرس الهيكل وجنود الرومان. وتقدّم إلي قائلاً: «يا سيّدي، يا سيّدي»، وقبّلني على فمي. وعلمتُ حينئذٍ أنه كان يحبّني أيضاً، أكثر بكثير مما كان يعتقد.

لكن حبّه لم يتجاوز النصف. شفتاه كانتا تستعران بحمّى. لا بدّ أنه قال للحراس: «الذي أقبّله هو المسيح». لا بدّ أنه قال لهم ذلك، فقد تقدّموا في الحال وألقوا أيديهم عليَّ. فاستل بطرس سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة على أذنه فقطعها وسال الدم من أذن هذا الإنسان الفقير. فقلت لهذا العبد: «لا تتألم بَعْدُ» ولمست أذنه وأبرأتها. وسألته عن اسمه، وكان مَلْخُس. أما جنود الرومان فظلوا صامتين ولم يتقدموا لإعانة ملخس إذ كان يهودياً، بل تراجعوا إلى الخلف أيضاً إذ أبرأت الجرح.

قلت لحراس الهيكل: «أَعَلى لصٍّ خرجتم؟»

وحين سمعوا هذا الكلام، قبضوا عليَّ، وهرب يعقوب ويوحنا، وبطرس نفسه مضى. وجنود الرومان أيضاً.

وتركت لحراس الهيكل أن يقودوني.

twitter @baghdad_library

- 45 -

مضى بي هؤلاء إلى بيت قيافا، رئيس الكهنة، وهو بيت كبير. وفي الطرف الآخر من قاعة، كان ثمة نار متقدة، وهناك اجتمع أتباع رئيس الكهنة. ورأيت بطرس جالساً بينهم يستدفئ عند النار؛ إذْ كان قد تبعني من بعيد.

الرجال الذين كانوا يمسكون بي وضعوا عصابة على عينيّ. وحينئذ، صفعني واحدٌ من هؤلاء على وجهي. وراحوا يقولون لي: «من هو الذي ضربك. تنبّأ!».

آخر، لم أره، بصق في وجهي.

وحينئذٍ، جاء الكهنة والشيوخ، وبعض أعضاء مجلس السنهدرين. وعلمتُ أن برفقتهم شهود زور. وللوقت، تقدم رجلان وقالا لرئيس الكهنة إنني قلت: «سأنقض هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيم آخر مكانه». ولم يتفقا إن كنت قد قلت سأصنعه بيدي أم سأعيد بناء الهيكل دون أيدٍ.

وأمر قيافا، رئيس الكهنة، بأن تُرْفَع العصابة عن عيني. فرأيت أمامي إنساناً طويل القامة، بلحية بيضاء تليق بنبيّ. وكان واقفاً وسط الجمع وسألني بلطف: «أتجيبني إن سألتك؟»

بقيت ساكتاً. ولا بدّ أن صمتي قد بدا غطرسةً وإهانةً، لأن قيافا رئيس الكهنة هذا قال حينئذ: «أستحلفك بالله الحيّ أن تقول لنا هل أنت المسيح، ابن الله مخلّصنا».

لقد استحلفني. وما كنت لأحلف بيمين كاذب لرئيس كهنة شعبي؛ لا، ولو كنت ابن الله وأرفع بكثير من أيّ كاهن. فقلت: «أنا ما تقول».

وبدت هذه الكلمات وكأنها قد هبطت من السماء. بدت بعيدة عني كلّ البعد حتى وأنا أقولها.

لم تظهر علائم الدهشة على رئيس الكهنة. وبرويّة، مزّق ثيابه وقال: «ما حاجتنا بعد إلى شهود. ها قد سمعتم تجديفه».

وبشقّه لثيابه كان قيافا يعلن للجميع أنني لست **ابن الآب**؛ لا، بل أنا ابن اليهود. وأن هذا الابن قد اقترف دناسة عظيمة جداً حتى إنه هو، رئيس الكهنة، قد مزّق ثيابه. فأنا من ذريّته، برابطة الدم التي تربط شعبنا. وإذا ما أدانني، فينبغي أن أُنْدَب الآن كما يُنْدَب الميت.

وحينئذٍ، انهال عليَّ الحراس بالضرب. فكلمات قيافا هذه أزالت كلّ خوف من أن أشكوهم لسوء المعاملة. وشعروا أنهم أحرار في أن يصفعوني.

كنت لا أزال أرى بطرس. فقد ظلَّ جالساً على مقعد في الطرف الآخر من القاعة. وجاءت إليه جارية وقالت: «ألست من أولئك الذين كانوا مع يسوع الناصري في الهيكل؟» فقال بطرس: «لست أدري ما تقولين».

وتركها في الحال وخرج إلى الشرفة، رغم الليل البارد. وهناك رأته جارية أخرى وقالت: «هذا منهم».

فأنكر أيضاً. وقال لها: «يا امرأة، لستُ أعرفه».

ثم جاء رجل وقال لبطرس: «ألست من جماعته؟ لغتك جليلية».

فقال بطرس: «لستُ أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه».

وحينئذٍ، صاح الديك.

كان ليلٌ، وليس صباح، غير أن الديك صاح.

وفي تلك اللحظة تذكر بطرس ما قلته له.

ترك الشرفة ومضى. كان يبكي. بكى. وأحزانه عبرتْ إليَّ. فجأة، مثل رأس الرمح. ولسوف يمضي حياته وهو يكفّر عن هذه الساعة حين أنكرني ثلاثاً قبل أن يصيح الديك مرّة.

وذهب قيافا رئيس الكهنة مع شيوخ السنهدرين. وأُلْقِيَ بي في حبس صغير طيلة الليل. ولم أقدر أن أنام بل رحت أفكر بما يمكن أن أعمل.

twitter @baghdad_library

كنت بحاجة إلى مشورة يهوذا. ليس مهماً أنه خانني؛ فقد حذّرني أيضاً. كنت الآن بحاجة إلى مشورته. فمن بين جميع التلاميذ، كان هو الأحكم في جلاء كيف يرتّب كهنتنا الأمر مع الرومان. وكنت أدرك أن الكثير سيتوقف في الصباح على طبيعة الاتفاق الذي يُعْقد بين قيافا ووالي اليهودية.

كثيراً ما حدثنا يهوذا عن هذين الرجلين وكيف يحفظان الأمن والسلام في أورشليم. فبيلاطس البنطي، والي اليهودية، لم يكن يسمح لجنوده بارتكاب أيّ إهانة قد تمسّ الهيكل، وقيافا لم يكن يجيز لأولئك اليهود الذين يموتون في هجمات على جنود الرومان بأن يُدْفَنُوا وفقاً للمراسم.

هكذا حافظ بيلاطس وقيافا على النظام: يؤمن الرومان، كغيرهم من الوثنيين، بآلهتهم التي تخصّهم، ويؤمن اليهود بالله الواحد، القدير فوق كل آلهة الوثنيين وشياطينهم.

وفي الشؤون الأخرى كان ثمة انسجام كبير بين قيافا وبيلاطس البنطي. وكما قال لي يهوذا مرّة، فإن الذهب كان يصل إلى الوالي الروماني من الهيكل بالسرّ؛ الأمر الذي يفسر اختلاف معاملته اليهود اختلافاً كبيراً. ففي السنة الأولى لتولّيه على اليهودية، ارتكب بيلاطس البنطي خطأ ووضع النسر الروماني على أعلام دار الولاية في المدينة المقدسة. وكان ذلك وثنية، وخرجتْ مظاهرة ضد بيلاطس البنطي. وتجمّع حشد كبير من اليهود أمام دار الولاية ورفضوا أن يتركوا المكان. وسرعان ما أحاطت بهم فرق بيلاطس وأمرتهم بأن يغادروا أو يُقتلوا. غير أن واحداً من أولئك اليهود لم يَخْطُ خطوة. واضطر بيلاطس أن يتراجع. وأزال النسر الروماني عن رايات فيالقه. لم يكن اليهود شجعاناً وحسب بل أذكياء أيضاً. وقد أدركوا أن بيلاطس لن يرغب في أن يزعج رؤساءه في روما بحربٍ في بداية ولايته. وكان قد قضى الآن أكثر من خمس سنين والياً على اليهودية، وكان السلام قائماً والأمن مستتباً، وإن كان لا يزال يصرّف شؤونه بخوفٍ يومي من الثورة.

أما قيافا، فقد كان رئيساً للكهنة منذ أكثر من عشر سنوات. وكانت حصيلة اتفاقه مع بيلاطس البنطي أنه هو أيضاً كان يمقت الانتفاض ويشمئزّ منه. هكذا قال يهوذا، ونادراً ما كان يهوذا يتردد في إظهار امتعاضه مني لأنني لا أريد أن أقود ثورة. كان يقول إن اليهود لا يمكن أن يعرفوا أخوّة الإنسان ما لم يتخلصوا من الرومان. وأعلن أمامنا أن تلك هي الطريقة الوحيدة لكي يتحرر اليهود من العار الذي يقسمهم ويبقيهم بعيدين عن بعضهم بعضاً، قلّة قليلة ثرية، وكثرة كثيرة من الفقراء، والكلّ خانع للرومان. أجل، لقد غضب يهوذا غضباً شديداً حين قلت له إنني أريد أن آتي بشعبي إلى **أبي**، وإن ذلك هو كلّ ما أريده. وقد قلت له ذلك أكثر من مرة خلال رحلتنا إلى أورشليم. والحقّ أنني كنت بريئاً من أي حافز يحفزني للتمرد على نسر أولئك الوثنيين. غير أني ما كنت أشعر أنني خانع للرومان أو خاضع لهم. لعلهم يحكمون قبضتهم علينا هنا على الأرض غير أنهم هباء أمام **ملكوت السماء**.

أيمكن أن يكون هذا مدعاةً للأمل؟ كوني لم أُرِدْ أن أقود ثورة؟

كانت أوصالي قد بدأت تحسّ بأوجاعها، والكدمات **في وجهي** تورمت.

هذا الحبس كان أحلك من الليل.

twitter @baghdad_library

ـ 46 ـ

عند الفجر، أُخِذتُ من بيت قيافا إلى حجرة صغيرة قرب بلاط بيلاطس البنطي. وعلى الطريق قال واحد من الحرّاس الذين معي إن يهوذا قد ردَّ الثلاثين من الفضة التي جعلها له الشيوخ.

وقال الحارس: «لم يعلم كهنتنا ماذا يفعلون بهذه الفضة. فلا يحلّ أن تُلقى في الخزانة لأنها ثَمَنُ دَمٍ». وهكذا رفضوا ثلاثين فضته، لكن يهوذا طرح الفضة في الهيكل وانصرف.

وبعد أن انصرف خنق نفسه. منذ أقلّ من ساعات ثلاث.

كيف أقدر أن أفهم؟ علامَ نَدِمَ يهوذا؟ على قلّة إيمانه بأبي؟ أم على قلّة إخلاصه تجاهي؟ لا، لا أقدر أن أتكلم. لا أجرؤ. لأنني سأبكي. من هذا الجانب أو ذاك من جوانب قلبي.

وأُخِذتُ أمام بيلاطس البنطي. رجلٌ ضئيل بأنف ناتئ وكتفين ناتئتين وركبتين ناتئتين. وبدا كأنه قد تسلق إلى مواقع كثيرة برشاقة عقله ومفاصله معاً. والحقّ أننا نادراً ما نجد رجلاً بأنف حاد غبياً. ولم يبد على بيلاطس أي شيء يدلّ على حبّ الخير، لكني رأيته حذراً محترساً، ولعله لم يكن يرغب بموتي، بل راح ينظر إليَّ كما لو كنت ريحاً شديدة لا تحمل فألاً حسناً.

وسأل بيلاطس الكهنة الذين ظهروا حينئذ: «أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان؟»

فقالوا: «هذا فاعل شرّ. وهو يحاول أن يُفسد الشعب».

فقال بيلاطس: «خذوه واحكموا عليه حسب ناموسكم».

فأجابوا: «لا يحلّ لنا أن نقتل أحداً».

وكان ذلك صحيحاً. فسلطة الإعدام مقصورة على الرومان. وحين سمع بيلاطس هذا الكلام ترك قاعة القضاء ليعقد مجلساً، وحين عاد، طرح على هؤلاء الكهنة مزيداً من الأسئلة، وقالوا إني حرّمت على أحد أن يدفع لقيصر الجزية وإني دعوت نفسي ملكاً.

وحينئذ سألني بيلاطس: «أتدعو نفسك ملك اليهود؟»

فأجبته: «هل الآخرون يقولون هذا؟»

فقال بيلاطس: «ألعلّي أنا يهوديّ؟ كهنتك أسلموك إليَّ. ماذا فعلت؟»

فأجبته: «مملكتي ليست من هذا العالم».

فنظر إلي بيلاطس حينئذٍ باهتمام وبسخرية أيضاً. فقد رأى الرضوض على وجهي. وسألني: «أفأنت إذاً ملك؟»

قلت: «على نحوٍ واحد أنا ملك. أقدر أن أشهد للحقّ».

فقال بيلاطس: «ما هو الحقّ؟» ربما كان بيلاطس هذا من غير إيمان، لكنه لم يكن من غير لسان. فقال أيضاً: «حين يكون حقّ لا يكون سلام. وحيث يثبت السلام لا تجد حقّاً».

وحينئذ صدر صوتُ مُخَالَفَةٍ خافت عن جماعة رئيس الكهنة. فأتقياء اليهود يعلمون ما هو الحقّ. وحقّهم في هذا الصباح كان أن يدينني الرومان.

وإذ سمع بيلاطس مخالفتهم، سألني أيضاً: «أجل، ما هو الحقّ؟» وأجاب بنفسه على السؤال. قال: «في التملك حقّ. وفي الأرض حقّ، في حيازتها على الأخصّ. وفي قوانين الأرض الحقّ كلّه. وبما أنك جليلي، فأنت تحت سلطان هيرودس، وليس سلطاني فهو ملك السامرة وأدومية والجليل كما عيّنته روما. وهيرودس في هذا الصباح هنا في أورشليم بل في بلاطي أيضاً. وقد تكلم عنك ويرغب أن يراك، لسماعه عنك أشياء كثيرة. ولعله يأمل أن يرى آية». وابتسم بيلاطس البنطي وقال: «أتقدر أن تصنع آيات في بلاط الوثنيين؟ فآلهة الوثنيين قد تكون أقوى في هذا المكان من إله اليهود».

twitter @baghdad_library

ومضوا بي عبر فناءات كثيرة في قصر بيلاطس إلى أن وقفت أمام هيرودس أنتيباس. رجلٌ سمينٌ، لم يَقُلْ الكثير. كان مأخوذاً بامرأة جميلة اتكأت إلى مائدته. غير أنه حين ابتسم جنوده لمرآي، إذ كان ثوبي قذراً، أمر بأن يحضروا ثوباً آخر، يليق بملك. أو بضابط عند الملك على الأقل، كما صحّح. ثم أشرف بنفسه على وضعه عليَّ. وقال: «بما أنك في أورشليم، فأنت تحت سلطان بيلاطس البنطي».

ورأيت أنه قد سُرَّ لهذه الكلمات. وأنه سيعيدني إلى بيلاطس. فهو لا يريد أن يتورط مع نسيب النبيّ ما دام هناك من يتورط غيره. وقال: «لأنك جليليّ جئتَ من أراض أُشرف عليها، فأنا أعيدك إلى بيلاطس البنطي بهذه الصورة، وقد لبستَ ما يليق».

عيناه كانتا صغيرتين وغائرتين في رأسه. لا بد أنهما قد اختبأتا هكذا من المشهد الدرامي لرأس المعمدان. لم يكد ينظر إليَّ. كانت يده على المرأة.

وساقني الحراس عبر القصر في طريق العودة إلى بيلاطس البنطي. وأمامه هناك كان قيافا واقفاً. وبدا كأنه هو أيضاً لم ينم بسلام.

كان بيلاطس يتكلم قائلاً: «لقد أرسلت إليَّ هذا الإنسان لأنه يفسد شعبك. لكني لا أجد علّة مما تشتكي به عليه أنه يهيج ثورة ضد الرومان. ولا هيرودس وجد علّة مثل هذه. انظر، ها هو قد أعاده برداء من الأرجوان. فأنا أؤدبه وأطلقه. حين تطلب أن أدين إنساناً بالموت، لا بدّ أن يكون قد صنع شراً خطيراً. فالموت، في الآخر، عقاب خطير».

رأيت أن ذلك لم يكن اختلافاً بالمنطق بل لعبة. فقيافا لم يُبْدِ أي استياء. واكتفى بابتسامة كئيبة، كأنه كان يعلم أن ثمن عدالة الرومان سيكون باهظاً هذا اليوم. فبيلاطس مستعد أن يقتلني، إنما بالثمن الذي يحدده.

وحينئذ قال بيلاطس: «أدين هذا الإنسان إن كنتَ مصراً، ولكن أضروريّ هذا؟ واليوم يوم عيد لكم. وبحسب قانوننا الذي يتوافق مع قانونكم هنا ، فقد اعتدت أن أطلق أسيراً يهودياً واحداً في فصحكم. أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود هذا؟».

راح كهنة الهيكل يتظاهرون بالتلفّت هنا وهناك بحثاً عن جواب. ورأيت أن أحداً من جماعتي لم يكن هناك. غير أني كنت أعلم أن جماعتي أناس فقراء، أو داجنين، إن كانوا من الأغنياء، أشبه بالأميين ويخشون الرومان. أما هؤلاء فكثرةٌ من شيوخ الهيكل والكتبة والفرّيسيين وأغنياء المدينة. وكانوا يحيطون بالكهنة. وأدركت (بعد فوات الأوان!) أن صوت الجموع ريحٌ عالية تقدر أن تصنع كثيراً من الأذى حيث تمرّ، ولا تترك خلفها سوى الهلاك.

وحين سألهم بيلاطس: «من تريدون أن أطلق لكم؟» أجابه هذا الجمع المخلص للكهنة: «باراباس». وكنت قد سمعت بهذا الإنسان. وأنه قد حُبِسَ لقتله أحد جنود الرومان.

وابتسم بيلاطس. فالقانون الروماني هو القانون الروماني، غير إن إطلاق يهودي قتل جندياً رومانياً يكلّف الهيكل مبلغاً ضخماً. وابتسم قيافا أيضاً، ابتسامة أوسع من ذي قبل، وكأنه كان يقول: «لديَّ القوى كي أتحمّل هذا العبء».

وقال لهم بيلاطس: «ماذا أفعل بالإنسان الذي يُدعى المسيح؟».

فصاح بعضهم: «لِيُصْلَب!»

وكان ذلك كافياً لإثارة اهتمام بيلاطس البنطي. فسألهم: «ولماذا يجب أن يُصلب؟ أيّ شر عَمِلَ؟»

الحقّ أن أمارات الفضول قد بدت على بيلاطس البنطي. فإذا ما كانوا يتطلعون إلى صَلْبٍ، لماذا لم يَخْتَرْ هؤلاء اليهود باراباس؟ ذلك أن الرومان يرون أن الأحكام الصالحة تفيد النظام العام وتخدمه، وتحد من القتل، الذي هو بالنسبة لهم فعل يستحق الحكم بالموت، وبأفظع طريقة. أما التجديف فلا يعدو أن يكون إساءة لإله، ويمكن التكفير عنه بالصلاة أو بالتحول إلى عبادة إله آخر. وهؤلاء الرومان لا يقدّرون الأنبياء أكثر مما يقدّرون التجار الأثرياء. وأنت لا تقتل تاجراً بلا أمانة، بل تغرّمه. ولعل الدهشة قد اعترت بيلاطس البنطي أيضاً لكثرة أولئك الذين أجابوه صائحين: «اصلبه! اصلب يسوع هذا!»

twitter @baghdad_library

وحينئذٍ طلب بيلاطس طاساً من الماء وغسل يديه. ثم قال: «إنـي بـريء من دم هذا الشخص». وكنت أعلم أن هذه طريقته في قبول قرارهم.

ورد قيافا وجماعته: «ليكن دم هذا الإنسان علينا، وعلى أولادنا».

كانوا صادقين. وإيمانهم كان عميقاً بمـا يكفـي لأن يـأخذوا قسـماً علـى أولادهم، في حين لم يأخذ بيلاطس سوى هدية.

أردتُ أن أصرخ: «لا تقسموا مثـل هـذا القسـم! فدمـي لـن يكـون علـى أولادكم فقط بل على أولاد أولادكم، وكل ذرّيتكم. كارثة إثر كارثة ستأتي». غير أنه كان عليّ أن أسكت أمام ثقة هذا الشعب، شعبي.

أخذني جند الرومان إلى استراحتهم. وهناك عرّوني من كلّ شيء سـوى مئزر. ثم ألبسوني رداءاً قرمزياً يليق بموظف عند ملك. وضفـروا إكليـلاً مـن شوك ووضعوه على رأسي وقصبةً في يميني لتكون صولجاني.

وكانوا يجثون قدّامي ويصرخون: «السلام، يا ملك اليهود». ثم يقومـون ويبصقون في وجهي ويضربونني على رأسي.

كانوا رومان، وأجلافاً.

دفعوا إكليل الشوك في جبيني. دفعوا الأشواك إلى أن راح الدم يسيل من جبهتي. وشعرت بخيط الدم كدودة موتٍ شاحبة تزحف على جسدي.

وسرعان ما نزعوا الرداء عني. وأعادوا إليّ ثيابي القديمة. وشـعرت بهـا تحنو على جسدي مثل يد الرب على طفلٍ وليد.

ـ 47 ـ

فيما نحن خارجون من قصر بيلاطس البنطي، وجدنا إنساناً قيروانياً، اسمه سمعان، هو الذي اختير ليحمل صليبي. وحينئذٍ علمتُ لماذا كانوا يستهزئون بي حين وقفت قدّامهم عارياً. فأنا لم أعد ذلك النجّار الذي كان يعمل كل يوم في الجليل، بهمةٍ ونشاط. أما الآن، وأنا عارٍ أمامهم، ما الذي بقي لي سوى عِظامي؟

وكانوا يضحكون وينادونني ملك اليهود من جديد.

وأتينا إلى موضع يُقَالُ له جُلْجُثة، حيث تبعنا جمعٌ من النساء كُنَّ يَنُحْنَ عليَّ. كان بعض أتباعي قد عادوا، وهؤلاء النساء كُنَّ في مقدمتهم وكُنَّ يبكين وكأنهن يشعرن بألمي قبل أن أتألم.

لم أسع لأن أخلص العالم بجهد النساء. بل بمكابدات الرجال وحسب. ولأن حلقي كان ناشفاً، لم أقدر أن أصيح سوى: «يا بنات أورشليم، لا تبكين عليَّ بل ابكين على أولادكن. لأنه هو ذا أيام تأتي يقولون فيها: طوبى للعواقر، وللبطون التي لم تلد والثُّدِيِّ التي لم ترضع».

تذكرتُ شجرة التين التي لعنتها وأضفتُ صامتاً: من أجل ذلك، أيضاً، أطلب الغفران. وتذكرت أيامي حين كنت نجاراً، وكنت أصلّي لتسلم قطعة الخشب.

وفي الحشد، رأيت أمي. وللوقت، تحوّلت عنها. الآن، بعد فوات الأوان، أدركتُ حبّها. فأنا هِبَةٌ من الرب، وكانت قانعة بكل ما أعمل،

twitter @baghdad_library

وتشعر نحوي برهبة. تلك الرهبة الدائمة التي إن عشت فيها لا تعود تعرف ولدك. أما الآن، في هذه الساعة، فقد كان ألمها عليَّ عظيماً. وعدتُ أنتمي إلى أمي من جديد.

إلى جانبها كان واقفاً تلميذي تيموثي، فقلت لمريم: «لا تبكِ. أنا عائد إلى أبي. يا امرأة، هو ذا ابنك». وقلت له: «هي ذي أمّك». فأومأ برأسه. وسوف يأخذها إلى بيته. ومن بين كلّ التلاميذ، هو الذي سيرعاها، فقد كان إنساناً سخياً طويل الأناة.

على مقربة من أمي، رأيت مريم المجدلية. وقلت لها (بخلاف ما قلت لبنات أورشليم، وكنت أهمس همساً): «لا تكوني بلا رجاء. أنجبي أولاداً. لأن الله قد غفر لكَ».

وعلى تلة جلجثة كان معي لصّان، وقد سُمِّرا كلٌّ على صليبه ويُرفعان. وفيما كانا يصرخان من الألم، اقترب بيلاطس البنطي، ألقى نظرة إلى العلامة التي رُبطَتْ حول عنقي، وقد كُتِبَ عليها: «يسوع الناصري، ملك اليهود». أما كهنة الهيكل، فقد اختار معظمهم أن يذهبوا ومن الذين بقوا قال واحد لبيلاطس: «ما كان ينبغي أن يُكْتَب «ملك اليهود». إذ ليس مهماً ما قاله عن نفسه. والمرء لا يصبح ملكاً لمجرّد أن يقول».

فأجاب بيلاطس: «ما كُتِبَ قد كُتِبَ».

ثانية أدركت ما يرمي إليه. فإذا ما تكلموا عني، في السنين الآتية، أني كنت ملك اليهود، فإن بيلاطس البنطي سيُعرف أنه كان أول الذين وافقوا على ذلك. وسمح لي أن أحمل هذا اللقب إلى موتي. أما إن لم يُنْظَر إلي كملك في مقبل الأيام، فَسَيُعْجَبُ الناس بما لديه من سخرية وفكاهة. وبذا أو بذاك، يبقى الملك الروماني الصالح. والحقّ أنّ الأمر يحتاج إلى عقل ذكي لكي ينتفع من نتيجتين، تعاكس واحدتهما الأخرى. أما أنا فكنت أتعلم كيف فتح هؤلاء الرومان كل هذا القدر من العالم، غير أني كنت أتعلم بعد فوات الأوان.

أخذني الجنود إلى صليب مُلْقىً على الأرض. خشبتان بسيطتان لم تُصقلا، سُمِّرَتا معاً بضربات مطرقة خرقاء. وساءني أن الصليب بمثل هذي الرداءة. غير أنهم نزعوا ثيابي وجعلوني أرقد عليه وأمد أطرافي.

أخذت نفساً.

كان الصبح حالكاً.

ثانيةً كنت وحدي عارياً إلا من المئزر.

twitter @baghdad_library

ـ 48 ـ

دقّوا مسماراً في كلّ معصم من معصميّ وآخر في كلّ قدم من قدميّ. لم أصرخ. غير أني رأيت السموات تنشقّ. وفي رأسي، سطع نور عليَّ إلى أن رأيت ألوان قوس قزح؛ كانت نفسي مضاءة بالألم.

رفعوا الصليب عن الأرض، وبدا كأنني كنت أصعد أعلى، إلى ألم أعظم. وهذا الألم تنقّل في فضاء شاسع كالبحار. أُغمي عليَّ. وحين فتحت عينيَّ، رأيت الجنود الرومان وقد جثوا على الأرض تحت قدميّ. وكانوا يختلفون فيما بينهم كيف يقتسمون ثيابي فتكون لكل منهم قطعة. أما قميصي القديم فكان بغير خياطة، منسوجاً كله من فوق. فقال بعضهم لبعض: «نقترع عليه لمن يكون. لا يصلح إلا لواحد».

وذهب القميص إلى الجندي الذي ربح، وتذكرت المرأة التي شُفِيَتْ من نزف الدم إذ لمست قميصي الذي كان يتدلى الآن من ذراع الجندي، رخواً ليّناً كالجلد الذي تطرحه الحيّة عنها.

وأنَّ أحدٌ بقربي. وجاوبه إنسان آخر. فنظرت إلى اللصين. كان واحد عن يميني والآخر عن يساري. وتحتنا، قال إنسان: «خلِّص كثيرين، فلماذا لا يقدر أن يخلِّص نفسه؟» وقال آخر: «إن كان ابن الله، فأين أبوه؟»

وحينئذٍ تكلم اللص الذي عن يميني: «إن كنت أنت المسيح، خلّصني!»

فقلت لنفسي: هذا الإنسان لا يفكر إلا بحياته. هو مجرم.

وقال اللص الآخر: «اذكرني، يا رب، متى جئت في ملكوتك»

فقلت له: «اليوم تكون معي في الفردوس».

ما كنت أعلم إن كانت كلماتي صادقة، أو إن كان اللص قد سمعها. صوتي كان أخفت من الهمس. وحتى في هذه الساعة، ساعة حاجتي، بقيت مخلصاً لعادتي الدائمة البسيطة، أن أواصل قطع وعودي للجميع.

كان الوقت لا يزال صباحاً، غير أن ظلمة أطبقتْ على الأرض؛ وكان ظلام. وتلوتُ في نفسي آية من **المزامير**: «احترقتْ بالحرِّ عظامي؛ أحشائي تغلي؛ جلدي أسود».

وكما تحول أيوب من الحمّى إلى تلك القشعريرة التي هي أسوأ من الحمّى، هكذا كنت أرتجف في مئزري. ومن عريي، صحتُ: «وجه الغمر متجمد». ولم أقدر أن أسمع جواب الله. ولما قلت: «أنا عطشان»، تقدّم واحد من الجنود ليعطيني خلاًّ. وحين رفضت، لأن الخلّ أسوأ من العطش، قالِ: «يا ملك اليهود، لِمَ لا تنزل عن الصليب»؟

وتذكرت ما هو مكتوب في **سفر الملوك الثاني**: «ألم يرسلني إلى الرجال الجالسين على السور، ليأكلوا عَذِرَتَهُمْ ويشربوا بولهم؟»

وصرخت **لأبي**: «ألا تُجيز معجزة واحدة في هذه الساعة؟»

وحين أجاب **أبي**، كان ذلك مثل صوت من العاصفة. وقد قال لي ذلك في أذني، وكان أعلى من ألمي: «لعلك تناقض حكمي؟»

فقلت: «لا أناقضه ما دام فيَّ نَفَس».

غير أن عذابي لم يزل، كانت سكرة الموت مكتوبة على صفحة السماء. والألم نزل إليّ كالبرق. والألم عَرَم فيّ كالحمم. تضرعتُ ثانية **لأبي**: «معجزة واحدة».

ولم يكن جواب. بل صدى صرختي وحسب. ورأيت جنة عدن وتذكرت كلام الرب لآدم: «من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها».

فليضربْ صوت أبي جلجثة ويعلو رعده كصوته، فالألم قد ساقني لأن أؤمن بما لا ينبغي للمرء أن يؤمن به.

twitter @baghdad_library

الله **أبي**، غير أني اضطررت أن أسأل: أفي يديه جميع **القدرات**؟ أم لا؟ مثل حواء، أردتُ معرفة الخير والشرّ. وفيما كنت أسأل إن كان الرب كامل القدرة، سمعت جوابي: الله، **أبي**، إله واحد. غير أن هناك آخرين. وإن كنت قد تخليت عنه، فقد تخلى عني هو أيضاً. وتلك كانت حينئذٍ معرفتي بالخير والشر. فهل كان ذلك هو سبب وجودي على الصليب؟

أحد الجنود أخذ إسفنجة، وملأها خلاً، ودفعها بين شفتي. وراح يسخر مني.

كان مذاق الخلّ كريهاً فصرخت بآخر ما كان فيّ من غضب سماوي، ونظرت إلى وجه الجندي الروماني الذي عصر الخلّ في فمي. قال لي: «لديّ رجاء. أتمنى لو كنتَ بارباس. لكنت عذّبتك. ولكنت مسحت قذارتي بوجهك».

وفي تلك اللحظة تكلم **الشيطان**. قال لي: «اتبعني». وكان صوته في أذني. «أنا أذيق هذا الروماني المتنمّر صنوف الخزي التي أقدر أن أضعها على البشر. فما من لذة أعظم من لذة الانتقام. وأُنْزِلُكَ عن الصليب».

كان ذلك إغواء وتجربة. غير أن فكرة واحدة هي التي ردّتني عن القبول. دموع ساخنة كالنار وقفت في عيني أمام هذه الفكرة. لقد أمرتني أن أقول **للشيطان** لا. فأنا كنت أعلم. في تلك الساعات على الصليب، كنت أعلم أن **أبي** كان يعمل ما يقدر أن يعمل. كما عملت أنا ما أقدر أن أعمل. وبذا كان **أبي** حقاً. ومثل جميع **الآباء** كانت لديه بلاويه المزعجة، وبعضها لم تكن تربطه سوى علاقة واهية **بابنه**. هل كانت الجهود التي بذلها من أجلي عظيمة فأُنهك الآن؟ مثلي حين لم أستطع أن أسير في بستان جثسيماني من ثقل أطرافي.

بعون هذه الفكرة، الجليّة كحضور الموت نفسه، تراجع صوت **الشيطان**. وعدتُ إلى العالم حيث أرقدُ على الصليب.

وشعرتُ حينئذٍ بأن الألم قد خفّ. ما كنتُ أرغب بأن أموت وفي قلبي لعنة. وكنت قد قلت للتلاميذ: «يظنّ كل من يقتلكم أنه يقدّم خدمة لله»،

وتذكرت هذه الكلمات مثل عزاء في هذه الشدّة. وقلت: «يـا ربـي، إنهـم لا يرون. جاؤوا إلى العالم فارغين ويغـادرون العـالم فـارغين. وأثنـاء ذلـك هـم سكارى. اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

وخرجتْ قوة الحياة مني ودخلت في الروح. ولم يبق وقـت إلا لأقـول: «قُضِيَ الأمر». ثم مُتُّ. وصحيحٌ أنني مُتُّ قبل أن يطعنوا جنـبي بالحربـة. وخرج الدم والماء من جنبي علامة على نهاية الصباح. ورأيـت نـوراً أبيـض شعَّ كإشراق السماء، غير أنه كان بعيداً. وآخرُ فكرة لديَّ كانت عـن وجـوه الفقراء وكم كانت جميلة عندي، ورجوت أن يكون صدقاً ما سيقوله الأتبـاع في الحال، أنني مُتُّ من أجلهم على الصليب.

twitter @baghdad_library

ـ 49 ـ

ما إن مُتُّ حتى راح أولئك الذين عرفوني يكتبون لفائف زائفة. أمّا الأناجيل فقد وضعها أناسٌ لم يعرفوني. (فجاءت أشدّ زيفاً!) فهؤلاء الكتبة ـ ويُدعون اليوم مسيحيين ـ كانوا قد سمعوا بطوافي وتنقّلي. وأضافوا الكثير. فتكلموا عن ملائكة قامت لموتي. ووصف بعضهم برقاً شقّ حجاب الهيكل في ذلك اليوم. وحكوا عن صخور تشققت وقبور تفتّحت. وزعموا أن الأرض راحت تتزلزل حين نُزِعَتْ من معصميَّ وكاحليَّ المسامير، وكنت راقداً على الأرض. بل إن بعضهم كتب أن القدّيسين قاموا، وخرجوا من قبورهم، ودخلوا المدينة المقدّسة وظهروا للكثيرين. وأن الشعب قال: «حقّاً، كان هذا **ابن الله**».

كثيرون ممن كانوا بقربي استسلموا للمبالغة؛ فما من واحد كان قد آمن **بالابن** أو **بالآب** بالقدر الذي يضمن قول الحقّ وحده، والذي اشتمل على الكثير، كما رأيتم. ولأجل ذلك، فإني، مثل دانيال، أختم الآن على إنجيلي راجياً للحقّ فيه أن يدوم إلى الأبد.

لكني لا أقدر. فعليَّ أن أتكلم عما قيل بعد أن مضيت. لأن الحكايات التي سمعتها عن ذلك كثيرة، وقلّة منها هي التي تصف الأحداث كما عرفتها. والحقّ أنني قمت في اليوم الثالث كما قالوا. لكن تلاميذي أضافوا خرافات إلى رواياتهم. فحين يرى الإنسان أعجوبة، يدخل **الشيطان** حكايته ويضاعف الأعجوبة ويكثّرها.

جميع ما أورده الآن هو حقّ: بعد الظهر من يوم موتي جاء رجل اسمه يوسف الأريماثي، وهو من أتباعي وإنسانٌ غنيٌّ، ومضى خفيةً إلى بيلاطس

البنطي وسأل أن يأخذ جسدي. كان المبلغ مجزياً، فوافق بيلاطس. وهكذا أخذ يوسف الجسد الذي كان لي مرّة ولفّه بأكفان. وجاء أيضاً رجل يدعى نيقوديموس، وكانا حاملين مزيج مر وعود، نحو مئة مَنَاً، وغسلاني ولفّاني بثياب جديدة وكفناني بكتان مع الأطياب، كما لنا عادةٌ نحن اليهود أن نكفّن. وكان في الموضع الذي صُلِبْتُ فيه بستان، وفي البستان قبر جديد منحوت في صخرة، وكان هذا هو الموضع الذي أعدّه يوسف الأريماثي لنفسه. ومن كثرة كرمه فقد أرقدني هناك.

وهكذا وُضِعْتُ في قبر رجل غنيّ. ودحرج يوسف ونيقوديموس حجراً كبيراً على باب القبر، وذهبا.

وحينئذٍ، خطرت لقيافا وبعض كهنته أفكار سوداء. فهم لم يتحققوا أن الحكمة ما فعلوا. ففي ليلة موتي راح كثير من اليهود الصالحين يضربون كهنتهم في شوارع أورشليم، قائلين: «خطايانا ستجلب علينا البلاء». وكهنة قيافا كان يهمهم ألا تحلّ عواقب سيئة على شعبهم وعليهم. وفي صباح اليوم الذي تلا موتي، اجتمعوا إلى بيلاطس وقالوا له إنني كنت قد قلت أمام كثيرين: «إني أقوم ثانيةً، بعد ثلاثة أيام». وطلبوا من الوالي أن يضبط القبر إلى اليوم الثالث. وقالوا: «لئلاّ يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه، ويقولوا للشعب إنه قام من الأموات. فتكون الضلالة الأخيرة أشرّ من الأولى».

فقال لهم بيلاطس: «اضبطوه أنتم». لأنهم لم يدفعوا له طلبته. ثم قال: «أنا طاهرٌ من دم هذا الإنسان. هذه فعلتكم وحدكم». وقد أخذوا كلماته هذه كتهديد، فقرروا آخر الأمر أن يدفعوا. وحينئذٍ أعطاهم بيلاطس قائد المئة بترونيوس وجنوده الرومان لكي يضبطوا القبر. ووضع هؤلاء الرومان سبعة أختام قبالة الحجر الكبير على المدخل وجلسوا هناك يراقبون.

والبعض يقول إن زلزلةً قد حدثت ونزل ملاك الرب من السماء ليدحرج الحجر عن الباب. وإن منظر هذا الملاك كان كالبرق ولباسه أبيض كالثلج، فهرب الحرّاس.

twitter @baghdad_library

ويقول آخرون إنه في فجر اليوم الثالث، وكما يمكن للموت أن يجمع الزانية والمرأة التي هي فاضلة، هكذا جاءت مريم المجدلية إلى القبر، وهناك رأت مريم أمي. واتفقتا على القيام بالشعائر لأجلي. ولكن، بعد أن جاءتا إلى القبر، كانتا تقولان فيما بينهما من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر؟

وحين تطلعتا، رأتا أن القبر كان مفتوحاً. ولما دخلتا القبر رأتا شاباً لابساً حلّة بيضاء، وقال لهما: «أنتن تطلبن يسوع الناصري. قد قام. اذهبن وقلن لتلاميذه إنه يسبقكم إلى الجليل. هناك ترونه».

لعل هذا أن يكون قريباً من الحقيقة. فأنا أعلم أنني قمت في اليوم الثالث. وأذكر أيضاً أنني تركت القبر لأطوف في المدينة وفي الضِّيع، ثم جاءت ساعةٌ ظهرتُ فيها بين تلاميذي. قلت لهم: «ما بالكم حزانى؟» ولم يعرفوني. وحسبوني متغرباً في أورشليم لا أعلم الأمور التي حدثت فيها. حتى إنهم قالوا: «حزننا هو لأجل يسوع الناصري، الذي كان نبياً عظيماً. لكن حكّامنا صلبوه».

قلت لهم: «انظروا يديّ ورجليّ!» ونظر توما، وإذ رأى الثقوب، طلب أن يجسّها (ولهذا هو يُعْرَفُ باسم توما الشكّاك إلى اليوم). وقد صدّقوا أمام مرأى الجراح. وللوقت، راح جميع من كانوا هناك يقولون إني قُبِلْتُ في السماء وأُجلِستُ عن يمين الله. أما أنا فانطلقت مبتعداً ولم يعودوا يقدرون أن يبصروني. وخرج تلاميذي وكرزوا أن الرب كان معهم. وصدّقوا أن لديهم القدرة أن يخرجوا الشياطين. وتكلموا بألسنة جديدة، وحين وضعوا أيديهم على الأمراض، برأت قلّة منها.

أما اليهود فقد كان بينهم مزيد من الانشقاق بسبب موتي. وأتى كثيرون إلى تلاميذي وصاروا أتباعاً جدداً ودعوا أنفسهم مسيحيين؛ وآخرون بقوا مع الهيكل وظلوا يتساءلون بين بعضهم بعضاً مئة سنة إن كنت المسيح أم لا.

كانت الغلبة بينهم للأغنياء، والكتبة، تساءلوا كيف يمكن للمسيح أن يكون إنساناً فقيراً فظّ الكلام؟ لا يسمح الله بهذا.

ولا بدَّ من القول أيضاً أن كثيراً من الذين يدعون أنفسهم مسيحيين اليوم هم أغنياء أيضاً وكذبة، وأخشى أنهم ليسوا بأفضل من الفرّيسيين. والحقّ أنهم أعظم في مراءاتهم من أولئك الذين كانت عليَّ إدانتهم حينئذٍ.

لقد ارتفعتْ كنائس كثيرة باسمي وباسم رسلي. أعظمها وأقدسها سُمِّيَتْ على اسم بطرس؛ وهي موضعٌ بالغ الروعة في روما. وفيها من الذهب ما لا تجده في أي موضع آخر.

ولا يزال الله **ومامون** يتصارعان على قلوب البشر من الرجال والنساء. وإلى الآن لم يقدر أحد أن يحرز النصر، لا الله ولا **الشيطان**. وأنا لا أزال عن يمين الله، أتطلع إلى حكمةٍ أعظم من تلك التي عرفتها، وأفكّر بكثيرين بحبّ. أما أمي فقد كُرِّمَتْ وبُجِّلت كثيراً. والكنائس التي سُمِّيَت باسمها كثيرة، ربما أكثر من التي سُمِّيَتْ باسمي. وهي مسرورة بابنها.

غير أن **أبي** لا يكلمني كثيراً. وأنا أُجِلُّهُ وأُكْرِمُهُ على الرغم من ذلك. لا شك أنه يبعث من الحبّ بقدر ما يمكن أَن يقدّم، غير أن حبه ليس من دون حدود. ذلك أنه حروبه مع **الشيطان** تزداد شراسة. وقد نشبت بينهما معارك عظيمة. وفي القرن الأخير من هذه الألفية الثانية كان ثمة محارق، وحرائق، وكوارث أسوأ من كل ما سبق.

ومع ذلك فإن معظم الناس يعتقدون أن الله قد حقق من خلالي نصراً عظيماً. وأن **الشيطان** قد لا يكون على قدر من الذكاء يكفي لأن يدرك مدى حكمة **أبي**. **فأبي** يعلم كيف يُبرئ من الكوارث والمصائب. وبعد موتي بخمسين سنة أو أكثر، وضع يوحنا إنجيله، وعَمَلُ يوحنا هذا (الذي لا أعرفه) لعلّه استضاء بأبي، فكلماته لا تُنسى. وهي تقول: «لأنه هكذا أحبّ الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد. كل من يؤمن به تكون له الحياة الأبدية». وتلك هي القوة القادرة في هذه الرسالة حتى إنَّ نبياً آخر لم يتبعه كلّ هذا القدر من المستعدين لأن يموتوا باسمه. وأنا، بالطبع، لست نبياً وحسب بل **ابن الله** أيضاً.

twitter @baghdad_library

غير أن الحقّ أكبر قيمة حتى من السموات. ولهذا فليكن معلوماً أن **أبي** لعله لم يهزم **الشيطان**. وبعد أقل من أربعين سنة من موتي على الصليب، قُتِلَ مليون يهودي في حرب ضد روما. ولم يبقَ من الهيكل إلا جدار واحد. لكن **أبي** أثبت أنه ماكر مثل **الشيطان**. وأنه قد فهم البشر أفضل مما فعل **الشيطان**. فقد رأى كيف يمكنك أن تجني الكثير من الهزيمة بتسميتها نصراً. وكثير من المسيحيين في هذه الأيام، يؤمنون أن ذلك كله قد حُقِّقَ من أجلهم. وأنه كان مُحَقَقاً في الأصل قبل أن يولدوا. ويعتقدون أن هذا النصر يعود إليهم من أجل ألمي على الصليب. وهكذا، لا يزال **أبي** يفيد مني في غايات كثيرة. وعن طريق بَرَكَتِي يرسل ما يقدر أن يحشد من محبّة إلى ذلك المخلوق الذي هو الرجل وتلك المخلوقة التي هي المرأة، وأحاول أنا أن أظلّ مصدر هذه المحبّة وهذا الحنان.

وذلك دون أن أنسى بيلاطس البنطي، الذي قال حيث يكون حقّ لا يكون سلام. وحيث يثبت السلام لا تجد حقّاً. ولهذا فإنني لست ألقي سلاماً بل سيفاً. أشنُّ حرباً على كل ما يجعلنا أقل مما ينبغي لنا أن نكون، أقل كرماً. ولا أريد **للشيطان** أن يُدْخِلَ في روعي أن طرائد طمعنا حفرة نبيلة وأنه هو روح الحرية. ومن سوى **الشيطان** لديه الرغبة في أن يقول لنا إن دربنا ينبغي أن تكون سهلة يسيرة؟ فالمحبّة ليست السبيل الناجع الذي يفضي بنا إلى الغاية الصالحة، بل هي الجزاء الذي نتلقّاه في نهاية الدرب العسير الذي هو حياتنا وأيام حياتنا. ولذا كثيراً ما أفكّر بالرجاء والأمل المختبئين في وجوه الفقراء. وحينئذٍ، من أعماق حزني ينبجس حنوٌّ وشفقةٌ لا يحُولان، وأجد الإرادة لأعيش ثانيةً وأفرح.

twitter @baghdad_library

إنجيل الابن

المسيح الذي يعيد ميلر خلقه، إنسان مغاير للآخرين، لكنه مفعم أيضاً بالأهواء والشكوك، بالقوة والضعف، بالشجاعة والخوف، بالحب والكراهية...إنه إلهي وبشري.

لعل ميلر قد كتب روايته هذه، كمحاولة لإعادة الاهتمام بالرأفة، وضرورة مساعدة الضعفاء والوقوف معهم، سعياً وراء نوع من التوازن، في وجه قوى لا تعرف إلا الربح والمال.

دار الطليعة الجديدة

سورية ـ دمشق ـ ص.ب: 34494 **تلفاكس:** 2311378

E-mail: sakkalfa@scs-net.org